رواية
أمير إفريقيا
دون فيليب دي أفريقيا
DON FELIPE
DE AFRICA
سيرة افتراضية تأليف حسن إمامي
رواية
أمير إفريقيا
دون فيليب دي أفريقيا
حسن إمامي
أمير إفريقيا
دون فيليب دي أفريقيا
حسن إمامي
حسن إمامي
من مواليد 1963
بمدينة مولاي إدريس زرهون
بالمغرب، تخلى بجراة المغرب.
صدر له سنة 2019 عمل روائي بعنوان (قرية ابن السيد).
مجموعة قصصية بعنوان (ملائن ليلات).
رواية (صرخة الصمايمي) أبريل 2016.
رواية (شجرات مراطا) أكتوبر 2016.
رواية (الفنانى) أكتوبر 2016.
رواية (زهرة الرجي) + رواية (زيلا: شرفة الريح).
توأم 2017. سنة 2019: رواية (جوزة العشق اللازوردي).
عن مكتبة السلام الجديدة الدار البيضاء.
عمل روائي ملحمي في أجزاء بعنوان
تاريخ مدينة مولاي إدريس زرهون.
طبعت منه رواية (باب القصبة).
- رواية الساعاتي (صدار دجنبر 2020.
- منشورات رقيد البوعلي، ورزازات:
رواية أم العيث – # رواية سيدي احمد بن قاسم –
رواية أوراق الموت المتساقطة –
رواية فيلا مارلين ورزازات - #قصص أطفال.
- العمل الملحمي (سيرة مدينة ونسيج حياة).
- اصدارات جماعية مشتركة في الشعر والقصة والدراسات النقدية.
- كاتب مقالات عديدة في مجال الصحافة والإعلام والفكر.
تكتب عنها في عدة منابر ورقية ومواقع إلكترونية متعددة.

أمير إفريقيا
دون فيليبي دي أنجو
DON FELIPE DE

CALLE DEL
RINCIPE

عتبة مرافعة:

كم من التخيل تجن،

وكم من التجني مجرد تخيل فقط!

"قد أكون افتريت على هذه الشخصيات وعلى خصوصياتها، لكنني انتصرت لكرامة إنسانيتها في كل هذا المتخيل، وهذا الواقعي الذي حصل في حياتها.

وقد يقع الاندهاش من المحتمل ودونه المستحيل، لكنه صورة لمساءلة ما دونه وقع !"

مولاي الشيخ السعدي

الولادة: 1566م.

اللجوء إلى مازغان: 1578

البرتغال: 1578 . 1589

إسبانيا: 1589 . 1609

إيطاليا: 1609

. الممات: 1621

بعض الشخصيات الرئيسة:

1/ العم مولاي ناصر

2/ الأم بياتريس، زوجة محمد المتوكل.

3/ الجارية صبح.

4/ دون لويس برافو، ب كوريا ديل ريو.

5/ فيليكس لوبي دي فيغا كابريو

6/ ميغل دي سيرفانتس

الأماكن الرئيسية:

1/ مازغان 2/ البرتغال 3/ البحر: رحلة بين الدول الأرب

4/ مدخل كوربا ديل ريو ، و مصب الوادي الكبير

5/ الوادي الكبير 6/أطريرة 7/ كارمونة 8/ أندوجار

9/ مدريد 10/ فيجفان، قرب ميلانو بإيطاليا

البرتغال

{ لقد استقر مولاي الشيخ وعمه مولاي ناصر . رفقة حاشيتهما المغربية التي كانت تتألف من 54 من خدم، وست جواري . منذ 27 دجنبر 1578 إلى حدود مارس 1787، بضواحي العاصمة البرتغالية، في بلدة تدعى فيلا ألفالادي villa Alvalade. كلاهما كانا يتلقيان من طرف سلطات البرتغال أجرا شهريا قدره 2000 مرابيطة maravedis }.

. مولاي ناصر، اِفتِني في الوضع الجديد.

تسارعت الأحداث ولم أعد أستوعب كل ما يقع، ولماذا وقع. مضت تسع سنوات على تواجدنا ببلاد البرتغال، التحق بنا من التحق، ومات من مات، وها نحن ما نزال على حالنا. لا أدري ما هو وضعي وموضعي هنا. أشعر ببرودٍ روحيٍّ شديد، لا تدفئه مؤانسات ولا مجالسات. ها أنا في االإثنين والعشرين سنة من عمري، أرِثُ عرشا فوق جمر متقد، ربما لن تخمده إلا مملكة البحر والمحيط. لم أجلس على كرسي عرش قط. كل الكراسي وعود مؤجلة ومنذرة بالحرب والدماء والثأر والانتقام. أجدني أحمل إرث الحكايات والأحداث ولا أعرف عن يقين حقيقتها من أوهامها المزيفة.

. مولاي الأمير، مولاي الشيخ بن محمد المتوكل رحمه الله برحمته، وسليل الأسرة الشريفة والابن البار الوارث لعرش ملوك الدولة السعدية الشرعيين، مولاي الشيخ بن محمد بن الغالب، لا أجد ممن يستحق عرش أسلافه المنعمين سواكم يا مولاي. كل هؤلاء استعانوا بالعدو للتسلط والتحكم. وأنتم وأبوكم ورثتم الخلافة عن جدكم وتستحقون كل خير معها يا مولاي.

. أرجوك يا عمي، اعفِنِي الآن من الشجرة وأصولها. ألا ترى بأنني تائه وضائع؟ ألا تلاحظ التطورات السياسية المتعاقبة والمعقدة؟ حتى الملك فيليب الثاني[1] الذي انتظرنا دخوله إلى لشبونة بعد تولى حكم بلاد

[1] ، ملك إسبانيا، (1598/1527). تولى الحكم منذ 1556.

البرتغال، رفض مساعدتنا، ولم يظهر نية في دعمنا. ألا ترى بأنه يريد الحفاظ على علاقاته المتميزة مع أحمد المنصور[2] بالمغرب؟

. لا يحق لك أن تحزن أو تقلق يا مولاي الشيخ. دع ترتيب ما يقع، فكلنا فِداك يا مولاي. وأنت أدرى بصدق قولي وصفاء وجداني وحبي لك أميرا وقريبا وعزيزا. كان أبوك رحمه الله تعالى الأ خ الصادق، والعالم الحق، والأديب البديع. دافع عن كرسي عرشٍ هو شرف الأسرة السعدية جمعاء. أما ما وقع، فهو خارج إرادته وإرادتنا. هناك قضاء وقدر، وعلى الملوك والأمراء مواجهتهما بحكمة ورشد وحلم ونفاذ بصيرة. لندع الزمن يأتينا بما هو أفضل كشروط وظروف. علاقة الود لا تدوم في السياسة، وما يفرق بين ملك إسبانيا وحاكم المغرب الآن أكثر ما يجمع بينهما. هناك الكنيسة الكاثوليكية، وهناك الكنيسة الأنجليكانية، لهما دور كبير في توجيه السياسات، ولا أظن أن تحالف أحمد المنصور مع الإنجليز قد يجعل فيليب الثاني سيستمر في هذا اللطف معه.

قد تراني الآن بهذه القلنسوة، هذا الغطاء الملتف حول الرأس والمنسدل على الكتفين، وكذا بهذه الجبة، اللباس الخشن الذي يُفرض علينا للتواجد بأمان بين أهل البرتغال، وهذا الزنار المتخذ حزاما، لكنني لا أرتا ح إلا في عباءتي ونعلي، في لون ثيابي البيضاء التي كنت أختار أبهجها وأنعمها من الحرير الفارسي والخيوط الهندية أو المصرية الرفيعة. وما عباءتي سوى ولائي لأمتي التي هي ضحية كل ما يقع. يموت الآلاف ويجوع أو يشرد آخرون بنفس العدد، كما يُجَهَّل منهم ضعف العدد، فيصبح كل هذا خطرا على كل مملكة وكل أمة. الخير فيما اختاره الله تعالى يا مولاي، والفتنة هي ما وقانا منها في وضعنا هذا. ولا أشد على الأمم من الفتن يا مولاي. لعل الله تعالى يخبئ لنا قدرا جميلا لم تكتمل أوصافه وشروطه وظروفه بعد.

[2] - أحمد المنصور الذهبي، ملك سعدي نسبة للدولة السعدية (1549م/ 1603م). تولى الحكم بين 1578 حتى وفاته.

. بالمناسبة يا عمي صالح، لقد جعلتُ لك هدية جديدة هذه السنة. ستجدها في إقامتك، فاهنأ بها وانعمْ أنت الآخر. كل الأعباء أنت الذي تتحملها أكثر وتخفف عني ثقلها وتزيح من طريقي أخطارها.

. الشكر الجزيل لكرمكم الذي لا ينضب يا مولاي الشريف. رضاك وسلامتك، أفضل هدية لنا جميعا.

. بالمناسبة، ما الوضع اليوم؟ أرى أن كل لحظة تتغير معها المعطيات كما هو مد وجزر البحر وتلاعب الرياح بأشرعة السفن.

...

استأذنت جارية تحمل رسالة مختومة. وضعتها فوق طاولة مستطيلة. كان أثاث الغرفة لا يختلف عن باقي المرافق في بساطته ووظيفته. حرِص المستضيفون على جعلِ تحكُّمٍ في ما يمكن تملكه واستعماله. حتى من رمز الصليب فقد غلب على جدران منحوتة صخريا. ما يُشعر الأمير بأنه في ضيافة قسرية قد لا يرغب فيها إذا ما خيّر باستبدالها بأخرى. يدرك الغصة التي تملكت البلد المضيف. ما ينفك ممثلوه من رجال دين أو عسكر، يذكرونه بالخسارة الكبرى التي منيت بها البرتغال لأجل نصرة عرش أبيه محمد المتوكل[3]. أن تَفقد إمبراطوريةٌ ملكَها رمز قوتها السياسية بالقرب من تواجدها وداخل مستعمراتها المطلة على نفس البحر والمحيط، فهذا يخلق قلقا كبيرا قد تتصدّع به أركان النفوذ البرتغالي في أمريكا أو آسيا.

حينما يُسائل نفسه: ما الذي يُنتظر مني في كل هذا؟ مرة أكون أنا الملام، وأخرى أكون درعهم الذي سيضربون به بقوة عدوهم الأول، حكام الدولة السعدية. ألست أنا كذلك من السعديين؟ يضحك ساخرا مع استنتاجاته، وكأنه وعيه السياسي الجديد الخاص به وقد تشكل اللحظة. يضع المفارقات على مستوى وعيه وتحليله وتشخيصه: أولئك العثمانيون قطعوا رأس جدي واحتضنوا أولاده، وهيّئوهم لمعارك ونفوذ،

[3] ـ محمد المتوكل، ملك سعدي (1540م/1578م). تولى حكم الدولة سنة 1574 إلى 1576.

وهؤلاء كذلك فقدتُ معهم أبي، وها أنا في حضنهم لاسترجاع كرامتهم. لا أدري إن كانت كرامتي وقضيتي حاضرة كأولوية عندهم أم أنني مجرد أداة.

انحنت الجارية حتى لامست تلابيب فوقية لباس الأمير، واستسمحت في الانصراف خارج الغرفة. ساد خلال ذلك صمت دقيق استنفرت معه حواس الطرفين: العم وابن أخيه. لم يكن لكلامهما أن تتناقله آذان تحوّل خطابهما بحسب اشتهاء وتأويل من يتلقاه. خلال عشر سنوات قضياها مع أسرهم وأتباعهم في هذا المنفى البعيد عن البلاد، كانت المعاناة من الوشاية ومن الافتراء، ومن محاولات التسميم والاغتيال. ولم يُعفِهم كل هذا من الصراعات الداخلية داخل بيت حكم البرتغاليين. بين مؤيد ومعارض لسياسة تحضير حرب وتوظيفهم فيها ضد أحمد المنصور السعدي، وآخرين يرون في تصفيتهم أو طردهم خلاصا من عقدة وتنفيذا لأمر مقدس صدر عن الكنيسة الكاثوليكية يقضي بطرد كل الموريسكيين وكل المسلمين من بلاد المسيحيين. لا ينفع تمسحهم ولا ادعاؤهم بالتمسح، فهؤلاء المسلمون لا ثقة فيهم، يوما ما سينتقمون ويرجعون راية إسلامهم.

لقد سمع الأمير هذا الخطاب المعادي بأذنيه وفهمه جيدا: ما الذي يفعله هؤلاء الذين تسببوا في خسارة ملكنا وشرفنا المسيحي بين ظهرانينا؟ أليسوا هم سبب ما وقع؟ ألا يكفي ما وقع؟ وهم بهذا العدد المخيف.

كانت الجارية نور، الوحيدة التي تقتحم مجلس الأمير، حيث لا يحق لباقي الخدم ذلك إلا بإذنها واستئذانها. حتى من الطعام، كانت هي التي تتذوقه، ومن الشراب، كانت هي التي تستفتح تجرعه تعبيرا عن وفائها وإخلاصها، قبل أن يتناوله الأمير. بادر الأمير إلى فتح الرسالة، فاعترض عمه مولاي ناصر على ذلك الفعل، بوضع كفه على كم عباءة الأمير و فوقيته، مبطئا حدوث الفعل ومشيرا إلى تروٍّ فيه.

. أستسمحك يا مولاي. لا ثقة حتى في المراسلات. تذكر كم من الملوك والأمراء تسمموا بلمس صفحة كتاب أو شم قارورة طيب أو عطر.

. صدقت يا عمي ناصر.

صفّق الأمير مرتين بكفيه، ومثلت الجارية أمامه من جديد، مطيعة ومنحنية ومنتظرة أوامره.

. من أحضر هذه الرسالة يا نور؟

. خادمكم الجديد يا مولاي أنطونيو دا سيلفا.

. أُطلبيه لكي يمثُل أمامنا.

. أمرُك يا مولاي. سمعا وطاعة مولاي.

دخل أنطونيو للغرفة بعد نزع سلاحه وحزامه. كانت فكرة العم مولاي ناصر أن يتحلل من المَخِيط والمخْيَط كل من مثُل وكان في حضرة الأمير من البعيدين عن الحاشية ومن الأجانب عنها. حتى من برنسه الذي ما يزال يحمل ريح ورائحة السفر، نزعه، وكأنه طائر مستعد للإياب به بعد حين، بعد وصوله وتسليمه للرسالة وانتهائه من مهامه المرتبطة بها. أدى التحية باللغة البرتغالية المفهومة:

. مرسولك من الأميرة بياتريس مولاي الأمير، أنطونيو دا سيلفا.

. مرحبا سفيرنا المخلص أنطونيو. أردنا أن نشكرك على إخلاصك وتفانيك وعناء سفرك. وطبعا أن تشرفنا بفتح الرسالة، فأنت الأقدر على قراءتها وشرحها إذا احتاجت لشرح.

. حاضر يا مولاي، وإن كان طلب الأميرة إلحاح على تسلمها وقراءتها بخاصة من طرف الأمير مولاي الشيخ.

. نشكرك على وفائك. على الأقل سيكون لك شرف فتحها وفك ثناياها الملفوفة وبسطها أمام الأمير.

. أمرُك طاعة يا مولاي الأمير ناصر.

بسطها أنطونيو فوق الطاولة الخشبية السميكة حتى لا تبقى ملفوفة كما وصلت، وبادر الأمير ناصر إلى النيابة عنه في إتمام ذلك مستعينا بكُمَّيه بدل كفيه.

. الرسائل ناعمة يا مولاي، وأخشى عليها من كثرة اللمس بالأيدي حتى لا يمّحي حرف منها. كما تعلمون، فإن انمحاء مجرد حرف واحد قد يغير مجرى التاريخ والحياة، وما أدراك بفهم قارئ الرسالة يا مولاي. حرف نهي واحد يغير من طبيعة تعاملنا مع القرآن الكريم كما تعلم. خذ آية (لا يمسه إلا المطهرون). ماذا لو حذفت كلمة (لا) الناهية؟

ابتسم الأمير مولاي الشيخ لمشهد عمه وللباقته وهو يؤدي دور الحامي والمعالج السلس لوضعيات مقامه ورحلته. شكر السفير أنطونيو ودعاه لكي يستريح، كما جعل له كيسا صغيرا من قطع نقدية بالريال البترتغالي، وطلب منه أن يحقق مناه في مقامه المخصص له بالمدينة هنا بالبرتغال. كان ذراع العم بعباءته الفضفاضة التي يتحرك بها بين دروب ومرافق المدينة يغطي سطور الرسالة، وكانت عينا أنطونيو متجنبة كل التفاتة أو فهم مريب أو تفسير غريب لما يقع.

كان نفس نوع الورق المألوف، وكذلك غلاف الرسالة القطني الملفوف، وخاتم الأميرة المشمع والحامل لحرف الباء اللاتيني، والمُذهب برذاذ غبرة خاصة تخفف توقيعه بالسائل المدادي البني. كلها عناصر طمأنت الطرفين لصحة المصدر، إضافة لسلامة الموصل للرسالة: أنطونيو دا سيلفا.

تأجّل كل حديث أو حوار كان قد انفتح صفحات على الماضي والتاريخ والسياسة والناس. أراد العم الانصراف، فألح عليه الأمير بالبقاء ومشاركته قراءة الرسالة، ففي نهاية المطاف قدرهما مشترك في السراء والضراء، كما ألمح له الأمير بالإشارة. كان تأمل السطور المكتوبة بخط يد أمه بياتريس. استحضر قسماتها وعطرها الذي استكان رذاذا خفيفا سرعان ما انبعث مع أنفاسه المتجاذبة مع صفحة الكتاب. بدت نظرتها بين السطور والكلمات لامعة مبتسمة كالمعتاد في مخاطبة ابنها، رغم أنها بعيدة عنه الآن بمئات الأميال.

لم يرها لمدة، منذ آخر زيارة تم ترتيبها لهما. حينها وقبلها، كانت لها مفاوضات ولقاءات مع أطراف عدة. جالست نساء القصر الملكي البرتغالي، وقابلت رجالاته، كل بحسب درجته من مجلس الشورى، وبحسب ما يستطيعه من اقتراح يمكن رفعه لسُدّة الملك العفيف، الكاردينال هنري الأول، والذي لم يدم ملكه سوى سنتين. كان هذا الأخير خلالها متشبثا بروح الانتقام لمَلكية البرتغال ولكنيستها الكاثوليكية. كانت شرارة النار مشتعلة في أفئدة الجميع، عازمة على الأخذ بثأر الصليب في حربه ضد هذا الهلال الذي أزعج روح المسيح كما سيادة الكنيسة الكاثوليكية في المشرق والمغرب. لا أمان من الجنوب. سبق للمرابطين وكذا الموحدين أن غزوا واحتلوا وحكموا مثل الموريسكيين.

الآن وقد مضت سنوات على تولي الملك فيليب الثاني عرش المملكة البرتغالية، فيما انتقلت سلالة الحكم من دائرة أفيز (maison d'Aviz)[4] التي عمّرت لحوالي قرنين من الزمن إلى منحدرها الجديد من نساء عائلة هابسبورغ habsbourg[5] إسبانيا، ها هي الأميرة بياتريس تجد نفسها أمام تحديات جديدة. لاحظت أن اهتمامات المملكة المسيحية كبُرت واتسعت لتنشغل بأولويات، قد لا تكفيها انتظارا في هذا العمر

[4] ـ *بيت أفيز، سلالة حاكمة للبرتغال بين 1385 و 1580م. وهي فرع من بيت بورغوندي. انقرض الخط الذكوري لبيت أفيز سنة 1580، وانتقل العرش إلى عائلة الخلافة هابسبورغ الإسبانية.*

[5] ـ *أحد أهم العائلات المالكة في أوربا، من أصل ألماني. كونها مصدر الأباطرة المنتخبين لحكم الإمبراطورية الرومانية المقدسة بين 1438 و1740م، وكذلك حكام الإمبراطوريات الإسبانية والنمساوية وغيرها.*

القصير من زمن السياسة الغادر. كانت أميرة من خيط حرير، قد يذهب دخانا مع أول شعلة نار. ليس لها من نفوذ في بلاد السعديين إلا من كونها أم الأمير المنفي واللاجئ هنا ببلاد النصارى.

كان عليها أن تنتظر أكثر، وأن تدفع من مال ابنها الأمير أكثر. تشعر بثقل المسؤولية، وبكون ابنها مجرد بيدق يتم تحضيره لمعارك جديدة ضد المسلمين وضد من قتلوا الدون سيباستيان، وتسببوا في تراجع نفوذ الحكم البرتغالي ببلاد المغرب. انتصارات العثمانيين بمعركة ليبانتي 1571، وتجرع الخسارة بتونس، وزحفهم التاكتيكي على بلاد المغرب الأقصى، ومعركة وادي المخازن المريرة سنة 1578م. مع كل هذه الانكسارات، ها هي الأميرة اليوم تقف على مشهدين.

الأول ترسمه الدولة السعدية المستمرة في توسيع نفوذها وتوطيده. دولة لا تعرف للتحالفات سوى أن تحقق لها مزيدا من الانتصارات ومن بسط النفوذ وضمان استمرارها وقوتها.

والثاني، ترسمه الكنيسة الأوربية الكاثوليكية، التي مع تأثيرها تتقدم القرارات في لشبونة ومدريد وغيرها من مراكز القرار والتنفيذ. ومع هذا المشهد الثاني تتعجب من تقاعس الملك فيليب الثاني من الأمر بدعم مباشر وجعل حملة على بلاد المغرب. كل تأخر يضعف وضعية ابنها الأمير.

لقد كان صراع إسبانيا مع الإنجليز على أشده وما يزال، وكان لا يبشر بخير، وعلى الخصوص لمهمة الأمير مولاي الشيخ الذي يريد استرداد ملك أبيه. ولا تدري الأم بياتريس في حقيقة الأمر، من سيكون لصالحه استرداد مُلك المغرب، أهو ابنها الذي يريد ذلك أم آخرون. هي كذلك تريد استرداد هذا المُلك، وإن كانت بعض اللحظات تجد نفسها فارغة من حقيقة ما تريده. لا أمان مع جميع الاحتمالات، لكن قرارا بمنع ما تريده السياسة والكنيسة سيجعلها في موقف حرج. قُتل زوجها محمد المتوكل، ونفيت هي وابنها الأمير، وها

هي اليوم ورقة على مهب الريح. على أسرة الأمير مولاي الشيخ أن تبرهن على ولائها كل حين بالمال والنفس والقرار والتأييد والتنفيذ.

حيرة كبيرة جعلت بياتريس تستعجل انتقال ابنها ومن معه إلى بلاد إسبانيا، خصوصا بعد أن خسر الإسبان بأسطولهم الشهير أمام الملكة إليزابيت سنة 1588، والتي بدأت معاركها سنة1585. كان الأسطول السعيد والكبير الأرمادا، مفخرة الإسبانيين التي أرادوا بها استرجاع المجد الكاثوليكي في مواجهة إنغليكانية الملكة العذراء إليزابيت. وكان صديق ابنها فيليكس لوبي دي فيغا، قد شارك في هذه المحاولة الفاشلة أمام الإنجليز. وسيهتم فيليكس هذا بسيرة الأمير ويكتب عنها حيث اشتهر كتابه واعتُمِد في تدوين سيرة الأمير الإفريقي التاريخية.

وكأن شرارة التاريخ والأحداث أنثى. هي التي تشعر بلهيبها الحارق. هناك وعي في التاريخ يسري بين النساء، وليس دونهن طبعا من يدركه. لقد ذاقت مرارة تلك الشرارة مع سحابة الرحمانية ومسعودة الونزكيتية. لم تكن المسؤولة عما وقع، لكنها ساهمت فيه بالشرعية التي رأتها لابنها والتي تخول لها كزوجة ملك أن تقوم بمهامها داخلها حفاظا على زوجها، وعلى ابنها، وعلى شخصيتها الاعتبارية، لأن زوجها كان ضحية لثقافة أسرة سعدية غير عادلة. عيّروا أم السلطان محمد المتوكل الزنجية الجارية، وفرّوا من الملك عبدالله الغالب بالله، والذي توفي سنة1574 ، وعاشوا في منفى لمدة طويل بجوار العثمانيين. كان صراع الإخوة حول الملك قد وصل درجة عداوة كبيرة لا رجعة فيها حيث يقتل الأ خ أخاه. قُتِل من قتل، ونجا من نجا بجلده. كلٌّ رأى شرعية سياسته في مواجهة الآخر.

وتحكي الأميرة بياتريس . هكذا تحب مناداتها بهذا اللقب . بما أن المسلمين لا يقدّرون قيمتها كزوجة للملك السلطان، وأم للأمير الذي سيتولى عرش أبيه، عن صراع النسوة داخل القصور السعدية. منذ صغره، كان

الأمير مولاي الشيخ يتلقى تغذيته من مرضعاته ومربياته، مثلما يتلقى تكوينه السياسي والتربوي من أمه ومرافقيها. كان عمه مولاي ناصر أكبر الأوفياء للملك محمد المتوكل. خياره من خياره، ومصيره من مصيره. شاركه خوض المعركة، لكن شاءت الأقدار أن يقتل الملك في معركة القصر الكبير هذه[6]، وأن يتجند مولاي ناصر لمواصلة الدفاع عن شرعية وأحقية الأمير مولاي الشيخ في استرجاع ملك أبيه، ضدا في أعمامه، وضدا في سحابة الرحمانية ومن والاها ثقافة وإقصاء وتصنيفا.

ترفض الأميرة بياتريس كلمة العلوج، وتعتبرها تنقيصا من كرامتها وقيمتها كسيدة القصر الملكي السعدي. كلما ازدادت ثقافتها وتمكنها من اللغة العربية وما ارتبط بها، كلما نهضت مرافعة عن حقها كأنثى ستقلب الموازين وتغير القيم، وتنتصر لإنسانيتها ولأميرها الصغير. ألم يكن زوجها السلطان محمد المتوكل شاعرا وعالما وفقيها ومتمكنا من المعارف؟ لمن ستنتصر إذن؟ لثقافتها الجديدة؟ أم لسلطة تتربص تواجدها ونفوذها منذ البداية؟

لكن كل هذا التحليل يتحول مرارة بعد تذوقه العذب كأمجاد مضت وولّت. فقط، ابنها وقد جعلتْه رسالة وجودها وتواجدها. هي الآن في محك كبير. يوم اخترقها كابوس مرعب جعلها تتصبب عرقا، وترتعد جزعا، وتصرخ بأعلى صوتها بما زعزع أركان قلعتها الصغيرة، التي اتخذتها مقرا لإقامتها بمنطقة إشبيلية عاصمة أمجاد من سلفوا ومن استرجعوا بحسب منطق التاريخ الأعمى، بعدما اطمأنت على ابنها ببلاد البرتغال وجاءت تطلب قرب البلاط الإسباني.

ارتعشت ليلتها أجنحة الحمَام القابضة على هدوء الليل وسكونه ونومه المعتاد والحالم بهديل غد جديد. تراءت لها شخصية سحابة الرحمانية التي لطالما وصفوها لها وتصوّرتها بهيئتها ووقفتها أمامها. كانت ساخرة

---

[6] ـ تسمى بمعركة وادي المخازن أو معركة القصر الكبير أو معركة الملوك الثلاثة. وهي في كل تسمية تحيل على المدين الأقرب لمكان وقوعها، أو المجال الطبيعي، أو الملوك الذين توفوا فيها أو بسببها. وقعت المعركة يوم 4 غشت سنة 1578م.

منها، ضاحكة ومقهقهة، رافعة مقصلة يدوية ستفصل رؤوسا، منها رأسها ورأس ابنها مولاي الشيخ. كان المشهد متوقفا على التنفيذ، مستلذا باللقطة واللحظة، محققا للرغبة السادية التي تسعد المنتصر، وتُشقي المنهزم. لقد كان صراعا بين أنثى وأنثى. استشعرته لحظتها. اختمرت الرؤيا وتضخم الحلم مع كِبَر اللعبة وتعقدها. وها هي اليوم تبحث عن بر أمان جديد، لها ولابنها. ترى هل سيكون بإشبيلية أم بمنطقة أخرى؟

استفاقت جاريتها معها. كان هناك رعد وبرق، ودوي سماء غاضبة ليلتها. طلبت إيقاذ نار وتحضير استحمام، خصوصا وأن شهر دجنبر كان قارسا وقاسيا خلال هذه السنة. لجأت إلى نعومة الماء ودفء النار لكي تنقذ ذاتها وروحها من قساوة هذا الحجر وهذا الصخر وهذا الضجر. مع شروق شمس اليوم الموالي، والذي فارق بين غضب طبيعة وهدوئها عن معركة طقسية ومناخ متقلب، تهيأت هي لطقسها التعبدي وتسلحت بصليبها واعتكفت به في زاوية من محراب غرفتها أمام العذراء، مخلّصةَ البشر والشافعة لفقراء الكنيسة في طلب النجاة مثلما نجا المسيح من ملاعن الدنيا والوثنيين ومن اليهود الرافضين. وكانت قد أكثرت من زيارة المعابد والأضرحة، لكي يشفع لها الرب والابن والروح القدس.

لم تنطفئ شعلة المدفأة خلال هذا اليوم بليله وصبحه، مثلما لم تنطفئ نارها الداخلية التي استعجلت القرار وبادرت لاتخاذه. سيتحول معه الولاء والاستمرار في مشروعية طلب استرداد الحكم من قبة قصر لشبونة إلى قبة عرش مدريد. القوة الآن بمدريد المتحكمة في أوربا وأمريكا، والحاصلة على مباركة الكنيسة الكاثوليكية بروما. وكأن البرتغال مجرد بوابة للعالم الجديد، ولمن أراد الإبحار اكتشافا وتحديا وولاء، وكأن إسبانيا صاحبة المفاتيح للعالم القديم الذي يراجع أبواب التاريخ ويعاود توزيع الدخول والخروج فيها كما الانتصار والهزيمة والغنيمة والخسارة. هي توجيهات الكنيسة الكاثوليكية ربما.

لقد قضت سحابة الرحمانية[7] سبع عشرة سنة تقريبا وهي تربي وتجند، تخطط وتنتظر. استطاعت أن تحقق تحدياتها. كانت عينا بياتريس متلألئة مع عين التمثال الذهبي الذي اعتكفت في محرابه، متأملة ومقارنة. كانت الأرواح متخاطبة بكل الأديان والملل والبلدان والنِحل. هل عليها أن تقضي نفس المدة هي الأخرى؟ متى ستعود بابنها الأمير لكي يتولى عرش أبيه المخلوع ويستعيده؟ والذي قتل بسببه كمَلِكٍ شر قتلة؟

مرت ثمان سنوات الآن، لا شيء تغير. معسكرات تدريب وقد خضع لها الأمير مولاي الشيخ، تربية سياسية وقد وافقت الوضع العام عالميا. كانت الأم حاضرة في بناء المواقف، وفي تحليل الأحداث. حضرت إلى إيبريا رفقة ابنها بعد لجوئهما إلى مازغان، لكي تهيء هذا الانتقال الجديد والدعم الجديد. قرأت تقارير البلاط الإسباني، واكبت اعترافاتها تصور الكنيسة الكاثوليكية لما ينتظر إيمانها وتطهيرها. أصبحت بياتريس بقدرة قادر، صاحبة رسالة مقدسة، تمجيدا للرب وانتصارا للمسيح الابن، وإسعادا للأم مريم العذراء المقدسة. الهدف هو القضاء على السلطان السعدي المسمى أحمد المنصور. أصبح الأعداء مشتركين الآن. ها هم الإنجليز وقد اختاروا مصالحهم كما توجههم الكنسي. ها هم قد فتحوا شهيتهم لملح وبارود المغرب وسُكَّرِه، بل أكثر من ذلك، زودوهم بعتاد وذخيرة وأقاموا علاقات ديبلوماسية واقتصادية وتجارية متينة معهم.

كانت إمارة البرتغال في حاجة إلى عنصر بشري يعزز قواتها، وكان من بقي مع الأمير مولاي الشيخ عدد لا يتجاوز بعض مئات. كيف لهم أن يناصروه مع انعدام جيش منظم يواجه ولاءات القبائل لنظام أحمد المنصور؟

كل هذه الهموم والشجون جعلت بياتريس تتضرع ليل نهار دعاء وتقربا للأب والابن والروح القدس، تتمسك بصليبها في خشوعها وابتهالاتها، تعترف في محراب كل كنيسة سرا للقساوسة الذين يرفعون تقارير

---

[7] ـ هي أم الملك أبي مروان عبدالملك السعدي الذي توفي في معركة وادي المخازن، فخلفه أخوه من أبيه أحمد المنصور الذي سيلقب بالذهبي فيما بعد.

إيمانها ونواياها وأمنياتها هرميا لقادة السياسة والدين. وليلة هذا الكابوس، دقت نبضات قلبها دقات طبول الحرب القائمة بينها وبين سحابة الرحمانية. رأت في عداوة سحابة تلك الأفعى التي حينما تجرح تزداد شراسة هجوم وحب انتقام وسفك دماء، خصوصا بعد موت ابنها أبي مروان. ولكن، ألم تفقد بياتريس زوجها وملكها وعرش ابنها المستقبلي؟ نفس الجراح ونفس الرغبة في الثأر والانتقام لمن استطاعت لذلك سبيلا.

استلقت بعد الاستحمام والتعبد فوق سريرها. طلبت من جاريتها (دونا) أن تدلكها بماء الورد الممزوج بزيت اللوز الخفيف. وصفة معطرة وممدة للعضلات ومهيجة ومحققة ذلك الاسترخاء المنشود. طلبت من الجارية الثانية أن تذهب لتستريح من سهرها، وبقيت دونا هي المشرفة على طقسها الخاص. وقد ساد ذلك الدفء المرجو استثناء في فصل الشتاء القارس، أصبحت معه غرفة النوم بعكس مجريات الزوابع والكوابيس. انسدل كل ثوب فوق السرير، وذهب التنفس مع ابتسامة هادئة وإغماض عينين استسلمتا للمسات دونا.

. ما رأيك سيدتي في ترطيب باللسان؟

. لك ذلك جارتي الجميلة.

كانت الكلمة إيذانا لطقس عوّض حرمانا، وملأ فراغا، وأخرج الوجدان من غدر الزمان وفزع ومجهول المآل. تحقق المراد، وذهبت بياتريس في نوم عميق وسكون. تبلسم كل شيء وكان الإزار القطني الأبيض خير موَقّعٍ فوق السرير على صفحة هذا الجسد الخاضع توا لطقس دونا الخاص مع أميرتها وسيدتها بياتريس.

لكن الرسالة كانت شغلها الشاغل فعلا. أخيرا استطاعت أن تنال رضا القصر الملكي والعطف الكنسي. أخيرا أخذت الإذن بالتحاق ابنها بها هنا بإقليم الأندلس. ولكن الملك فيليب كانت له رؤية أخرى مغايرة. ستحتاج الأميرة بياتريس لمن يفسر لها الأمور بواقعيتها السياسية وليست العاطفية. لقد أراد فيليب الثاني جعل معارضة المغرب بالقرب منه حتى يتحكم فيها كيف يشاء. هل ستستطيع الاستقرار مع ابنها بإشبيلية

في نهاية المطاف؟ إشبيلية رمز المجد التاريخي المتحدي للشرق والغرب. هي مدينة الجمال الذي تذوقت عبيره وهي زوجة السلطان، والسفيرة المغتربة داخل أسرتها المسيحية الكبرى هنا ببلاد الأندلس.

كانت المهمة صعبة، تلك التي ارتبطت باستدراج الموريسكيين لنصرة ابنها وتحقيق حلمهم في انتصار جديد، وجبر كسور الزمن والتاريخ. جالست زعماءهم، وتوغلت في أوساطهم. علّها تجد خيطا رفيعا يربط قضية ابنها المخلوع سلطان أبيه، وقضية حقوق الموريسكيين الذين يعانون الويلات من الكنيسة وحقدها وحملتها الصليبية العمياء. فرغم عمليات تمسيحهم التي فرضت عليهم مع توحد شبه الجزيرة الإيبيرية في ظل راية سياسية ودينية مسيحية، ومع الأسر الموحدة بالمصاهرة والتبعية التي جعلت جل الأقاليم تحت قيادتهم، إلا أنهم ظلوا أوفياء لخوفهم ولاحتياطاتهم من عمليات التطهير التي عانوا منها والتي ما تزال مستمرة ومخيفة جدا. خصوصا وأن الكنيسة ترى في التخلص منهم بطردهم أو قتلهم، أفضل سبيل وحل بدل تمسيحهم وإدماجهم. ربما الحل في توجيههم لمحاربة السعديين مع الأمير مولاي الشيخ السعدي. ولكن، كيف لهم أن يناصروا من يناصر المسيحيين والإسبان؟

. أظن يا مولاي أن الرسالة واضحة. يجب أن نستعد للرحيل. مركز القرار الآن بإسبانيا، وحتى ما ننتظره وينتظرنا موجود هناك. لابد من تشكيل حلفاء جدد، وإن كان من الصعب علينا إيجادهم بين المسلمين المتمسحين.

. لماذا سيكون أمرا صعبا يا عمي صالح؟

كان العم يمتلك نظرة حزينة وعميقة. لكن عينيه تظلان جاحظتين. قد تأتيه لحظات يكون فيها متأملا لعتمة الليل وحلكة الظلام. لا يجد من وقت للنوم. لا يستطيع ذلك. يحتاج للحظاته الخاصة به. يراجع الأحداث، ما سبق وما تراكم منها. يعيد تفسير المحطات وكل خطاب أنتجه محيطه، وكل رسالة تلقاها أو أخرى بعثها.

ينظر للحصيلة ويرى التأويلات الجديدة. لم تكن له ثقة في أي طرف. ما قامت عليه الدولة السعدية لم يعد له أساس اليوم. ذلك الأساس الديني، وتلك القيم التعبدية والروحية التي حكيت له حول دور الزوايا الصوفية والروحية في بناء الدولة السعدية، كلها الآن بعيدة عن روح الحاكم والمحكوم. ألم تقم الدول قبلها على نفس الأساس؟ هل هناك معارضة معاصرة له للحكم السعدي من داخل بلاد المغرب؟

مرت سنوات الآن وهو في منفاه الاضطراري. ربما مهمته في حماية الأمير مولاي الشيخ هي التي كانت سببا في عدم وقوعه ضحية في معركة القصر الكبير. لكنها الحرب، لا تعرف منطقا للنجاة سوى ما سمحت به ظروفها. هو وقد لجأ إلى أصيلا بعد مقتل أخيه الملك محمد المتوكل. ابن أخيه وقد نُقل إلى مازغان ومنها إلى لشبونة، حيث التقيا، وتعاهدا على الأخذ بالثأر والحق المغتصب.

فعلا، لقد تباعدت اللحظات ومحطات وقوع ما وقع الآن. وحتى التخوم التي كانت موالية لسدة الحكم، حكم السلطان محمد المتوكل رحمه الله تعالى، أصبحت نائية عنه وعن مفاتيح استرجاعه لحق مغتصب. احترق أكثر قبل المعركة، برأي الفقهاء والعلماء الذين والَوْا عبدالملك أبا مروان. لم يجد في طعنهم لاختيار محمد المتوكل الاستنصار بالنصارى أي كفر أو ارتداد. ولماذا لم يطعنوا في الطرف الآخر الذي قتل أباهم الملك السعدي، أولئك الذين اختاروا اللجوء إلى البلاط العثماني، وقبله إلى ولاية تلمسان والجزائر. كيف نلتجئ إلى من قتل أبانا الملك السلطان الغالب بأمر الله؟ لكن القرار لم يكن قرار من يحكم الآن. ساهمت فيه حاشية، استدرجتها سياسة العثمانيين، وكذلك قرار لالة سحابة الرحمانية ونفوذها. تلك كانت الشرارة. لكن، والحق يُقال، كانت شرارة أكبر منها، تلك التي جعلت الإخوة السعديين يتقاتلون فيما بينهم، والتي جعلت مولاي محمد المتوكل يقتل منهم ويتوعد آخرين، مثلما قتل وتوعد أباه كل من رآه حاجزا معرقلا

لأمانه وأمنه. والفتنة أشد من القتل. هكذا علمنا ديننا الحنيف. وما نزال نعيش جحيم هذه الفتنة المندلعة نارا، على الأخضر واليابس.

"كل التقارير والأخبار تشير إلى تقارب الحكم السعدي بالمغرب مع الإنجليز، بل إلى توطد العلاقات السياسية والاقتصادية وتبادل الزيارات والسفارات. لكنني لا آمَنُ لا هذا ولا ذاك. حتى الإسبان استمالوا الحكم السعدي من أجل مواجهة العدو الأكبر، ألا وهو الدولة العثمانية. لا ثقة في السياسيين. أنا ناصر بن عبد الله الغالب، كنت وما أزال متمسكا بشرعية الحكم المستقل لبلاد المسلمين بالمغرب. أدافع عن حق اغتصب.

أناهض العثمانيين وأمقتهم إلى يومنا هذا لأنهم قتلوا أبانا. يرون فينا كلاب صيد مدربة ويجب ترويضها لإطلاقها متهيجة على فريستها وعدوها الأول. والعدو الأول، فعلا عدونا أجمعين، لكن ليس بصيغة إحراقنا حطبا من أجل اتقاد نار هجومية عليه. لسنا حطبا لذلك، ولن نكون حيوانات يقتل كبيرها ويقاد صغيرها للترويض. ما لا يستطيع أحمد المنصور فهمه الآن، لأنه لا يمتلك الخبرة التاريخية لذلك. والوعي تراكم تجارب. بيننا حروب آتية يا أحمد. لكن، لتعلمْ، والحق يقال، بأنني لا أريد أن يُقتل الأ خ على يد أخيه. في نهاية المطاف، كفانا تقاتلا، فكل هذا بعيد عن الدين. لا أظننا من أصحاب الجنة ومن أصحاب هذا الدين كحكام وكأمراء، ما دمنا في هذا الطريق" .

كل ليلة كانت بهذا الحال الذي يطول وقد يقصر، بحسب متسع الذهن ويقظته لرحلة صاحبه الشقية. ولعل أكبر سعادة يشعر بها الأمير ناصر في هذه المرحلة، هي ذلك الهدوء والصمت الذي يهبُه الليل والظلام. هذا أفضل له من قرارات النهار التي قد تفاجئه وتبدأ في تنفيذها رغم عنه. "ما لم تكن هناك يد طارقة لبوابة

القلعة الصغيرة، أو وتاد خشبي أو حديدي سيستعمل لسلخ بوابتها الوحيدة، أو تسلل شبحي مرسول لقتل الأميرين مولاي الشيخ ومن معه، بما فيهم أنا، فإن هذا الليل أسعد وأصدق وأقرب لطمأنينة الروح" .

"سأقوم لصلاة استخارة وأخرى لطمأنة الروح وإذهاب الخوف (ألا بذكر الله تطمئن القلوب). صدق الله العظيم" .

. مولاي الشيخ، أميري المبجل. دروس السياسة كثيرة جدا ومعقدة، وكذلك خيوطها. إذا أمسكت بواحد دون الآخر وشددت عليه محاولا نزعه أو سلّه، ربما ستتعقد اشتباكات الخيوط الأخرى. كل خطوة وكل إجراء يجب أن يكون بألف حيطة وحذر، وألف حساب قبل اتخاذ القرار وقبل التنفيذ.

. صدقت يا عمي. وأنت تعلم أنني حديث العهد بكل هذا. بالكاد استطاعت ذاتي امتلاك صفة الجندي. أتدرب ليل نهار على ذلك. منذ غادرنا مازغان وأنا في تجنيد مستمر. لعل الهلع الذي انتابني كان جزءا من تهيئي للعمل العسكري مستقبلا. أن تكون شاعرا بحضور الموت، ولحظة حتفك، ولو طال أمدها عشرات السنين، فذلك جزء من تكوين الجندي وتأهيله للمعارك. ساعدتهم في شد الحبال والضغط على الأشرعة بالسواعد حتى لا تقتادها الرياح إلى غير مجراها المحدد شمالا ، حيث نجاتنا من بطش أحمد المنصور. كانت هذه الأشرعة كل مرة تنجذب لسواحل المغرب، وكأن هناك مغناطيسا يفعل فعله. نجونا من القراصنة، وما ساعدنا على ذلك سوى حنكة ودربة ومفاوضات مرافقينا المخلصين.

كنتُ حينها أزن نصف ثروة المغرب من الذهب لو أخذوني رهينة للمقايضة. لو كانوا على علم بمن نحن، وما صرنا عليه حينها، ما كنا لننجو. بالعكس، كانت غنيمتهم الكبيرة التي سيغتنون بها عند أحمد المنصور، عمي الذي لم أنعم بعمومته وقرابته. عمي الذي عاد لينتقم هو وأبو مروان، ودفعتُ أنا ثمن صراع الإخوة. هل تتذكر حلبة (الترونديرو) هنا بلشبونة؟ يوم جعل ذلك العجل الفتي وسطها، وأطلقت ثلاث سباع من بوابات

متباعدة، ارتمت وارتطمت فوق جسد العجل دون أن تتمكن منه بعد. تصارعت وتخالبت وأدمى كل منها الآخر، والعجل متجمد في حاله ربما من الرعب الذي قتل خلاياه العصبية، فلم يعد يستطيع حركة ولا ارتعاشة. كيف تمكن اثنان منه، وثالثهما تراجع بجراحه، وكيف استمر النهش لمدة قبل أن يبقر، وقبل أن يسحل ويمثَّل به، فما عاد اللون الأحمر يميز الفريسة من المفترس، واللحم من العظم من التراب الرملي البني كذلك. ليلتها أصابتني حمى وقشعريرة. كنت أنا وما أزال إلى يومنا هذا، ذلك العجل الذي لم يُرمَ بعد في وسط وغى وحوش ضارية. ربما سيهيئونني لها في المستقبل.

. نجاك الله يا مولاي من كل مكروه. أنا هنا لحمايتك منه، وإبعادك عنه ما استطعت إليه سبيلا. لكنها السياسة يا مولاي، تحتاج منا إلى هذا العقل حتى يشتغل، وحتى يصيب هدفه المقصود. حتى الدين مقاصد، هكذا تعلمنا العلوم الشرعية ذلك. مجالس مولاي محمد المتوكل رحمه الله تعالى، كانت غنية بالفوائد. أتذكر يوم اعتلى كرسي الحديث والفقه، عالمٌ أتى من بلاد الأندلس سأستحضر اسمه إذا استطعت. تكلم عن فقه السياسة، واعتبره ضروريا لكل حاكم، ولكل تابع. لكنه ميّز بين ما يحتاجه الحاكم منه، وما سيحتاجه المحكوم. ميز كذلك بين ثلاث دوائر. كان ذكيا في الوصول إلى هدفه ومقصده من التحديث في السياسة والسياسيين. جعل الدائرة الأولى للبلاط السعدي، فكرّمه ومدحه ونوّه بمنبعه الروحي والمشرقي، واعتبره يجسد الروح المستقلة التي أرادها الله للمسلمين حيث لا خوف إلا من الله تعالى، ولا طاعة إلا له سبحانه وتعالى الخالق العظيم.

الدائرة الثانية، جعلها للبلاط العثماني، وبين مزايا أن تكون القوة للمسلمين أمام أعداء الله من الصليبيين ومن والاهم، كما وضّح أخطاءهم المتجلية في جعل المسلمين من دائرة العروة الوثقى، أكباش فداء بينهم وبين الصليبيين. وكأنه لا حق للضعيف في أن ينعم بأمان وسط تصارع الأقوياء.

الدائرة الثالثة يا مولاي، يجسدها ابتلاؤنا بِعدوٍّ مستدام. من أول يوم بدأت فيه الدعوة الإسلامية كان قدر الدين أن يكون له أعداء. وهي حكمة ربانية يا مولاي، حكمة الابتلاء. قال تعالى في سورة البقرة: (لنبلوكم بشيء من الخوف والجوع ونقص في الاموال والانفس والتمرات، وبشر الصابرين)[8].

ها أنت ترى يا مولاي هذا العدو، وقد استأسد اليوم. كلما كبر حجم الدعوة الإسلامية، كبر حجمه هو الآخر. وفي ذلك حكمة ربانية وابتلاء. لا ننسى أن الإنسان بطبيعته خطّاء، ودرجة أخطائه بين مُخرِجته من الجنة، ومثيرة للفتن والمصائب والويلات.

لقد بدأ الدرسَ بحكمة نظرية، ظننّا أنه انتهى من تحديثه، لكنه انتقل بنا إلى جزء آخر جعله بين الدوائر الثلاث، مرتبط بأوضاع الأندلس ومسلمي الأندلس. كنتُ حينها أتأمّله وهو في لباسه البهي المزين بخيوط مذهبة. كان أنيقا في هيأته، لامعا في محياه. يختلف كثيرا عن علمائنا الذين يهملون مظهرهم ويبدون الهَمَّ في ملامحهم. لكنه كان مخالفا لهم، بابتسامته التي يوزعها مع نظراته. حينها علمت أن السياسة ابتسامة كذلك، والابتسامة سياسة. لابد لنا من اللباقة وحسن الطلعة والمحيا وقَبول النظر والتناظر، وهذا دأبنا يا مولاي الشيخ بمقامنا هنا. ألا ترى أن بهي اللباس مبشر خير في كم من لقاء وتفاوض ومتاجرة. رغم أنني لا أميل إلى الدنيا ومفاتنها. همّي الوحيد هو استرجاع الحق وجعل الأمور في نصابها. لا أمان مع من قتل أبانا، ومع من حاربنا وحارب ديننا وأخانا. هذا مقصدي من الحديث عن العالم الأندلسي، وعن الدائرة التي جعلها مشتركة مع الدوائر الثلاث.

واعلمْ يا مولاي، أنه من أهل الفلسفة والمنطق كذلك، وحامل لعلوم حياة عديدة. وقد تحدث عن مسلمي الأندلس وما تمثله للحضارة الإسلامية وللمسلمين، مختصرا كلامه. ما لم ندركه حينها وما نزال جاهلين له

[8] - سورة البقرة الآية 155.

جلنا، هو أن الأندلس تاج الحضارة الإنسانية، وسينتقل هذا التاج في طبق من ذهب إلى الآخر. سيتطور هذا الآخر، ونتأخر نحن. ونحن طوائف متناحرة وإخوة أعداء، نتحالف مع الآخر ضد أنفسنا قبل إخوتنا. وهذا ما أضاع الأندلس، وهذا ما ينتظر بلاد المسلمين لأنهم بنفس حالهم. مر حوالي قرن من الزمن وها هم الأندلسيون بين نيران متعددة، من يريد تنصيرهم، ومن يريد إبادتهم، ومن يريدهم في جبهة حرب لقضاء مصالحهم السياسية والاقتصادية قبل غيرها من المصالح.

. الرسالة يا عمي صالح تشير لهم ولدورهم. كيف تفسر ذلك؟

. الجواب صعب يا مولاي. كيف سنقنعهم بمساعدتنا على مواجهة أحمد المنصور، والذي هو الآخر وعدهم بالتحرير، مثلما تحقق ذلك مع الموحدين والمرابطين؟ ما تزال آثار الدولتين قائمة ببلاد الأندلس. إنني أرى بعض الحلول، لكنها مكلفة ماديا، وطويلة الأمد في تحقيقها. ستحتاج إلى مدد وعتد ومال.

. مثلا؟

. شراء من استُعبِد منهم، وتحريرهم على أساس الولاء لنا جِهاديا وعسكريا. أو ربما التفاوض مع من بقي منهم ببلاد الأندلس وطلب رفع القيد عنهم ورفع الحصار، وفي مقابل ذلك سلامة أسرهم وأموالهم وأراضيهم. كذلك سيكون ولاؤهم لنا ومساعدتنا في مواجهة أحمد المنصور والموالين له.

. وماذا عن الأندلسيين الذين استقروا ببلادنا المغرب أو الجزائر، والذين يعملون الآن على استرجاع الأندلس بما أتيح لهم؟

. لن نفاوض هؤلاء الآن، ولن نجعل مواجهة بين المهَجَّرين والآخرين الموجودين هنا. ستكون رسالتنا واضحة وهي ربط تحرير الأندلس بتحرير بلاد المغرب من قبضة أحمد المنصور. وإن كان هذا الأمر مستحيلا، باعتبار

ارتباطنا نحن كذلك بقيود الدولة القشتالية الإسبانية. يستحيل عليهم تحقيق حلمهم الآن. على الأقل نبحث عن ضمان لحقوقهم الأساسية وكرامتهم. أما بخصوص أحمد المنصور، فبحسب المعلومات التي وصلتنا لحد الآن، فإن اهتمامه تحوَّل عن بلاد الأندلس وانشغل بعلاقات مع الإنجليز، ويتطلع إلى إفريقيا. هو الآخر جعل الأندلسيين أداة عسكرية لتوسعاته المستقبلية. إذا صح كل هذا، فعلينا أن ننتظر سنين أخرى. وما ضاع حق وراءه طالب يا مولاي. نحتاج إلى ثورات داخلية ضد أحمد المنصور من مثل ثورة الحاج قرقوش[9].

. ما رأيك الآن يا عمي في فحوى الرسالة والعرض الموجود فيها؟

. إذا جاءت مراسلة الملك الإسباني رسمية، فلا خيار لنا الآن. هي محطة ضرورية في مشوار رسالتنا من أجل استرجاع المُلك وجعلِك ملكا شرعيا. أنت من يستحق ذلك يا مولاي. ها أنت ترى، انتقلنا بين بلدات عدة داخل البرتغال، والقرار السياسي أصبح مِلْكا لإسبانيا الآن. بمعنى لا جدوى لنا من انتظار قوة وقرار برتغاليين. حتى من السياسة العدائية استغلها أحمد المنصور حين طالبوا بجثة دون سباتيان فنقلوها بدون فدية ولا قيد أو شرط. رسالة سياسية تبين أن ما وقع وقع، وأن السياسة تدبير المصالح وترتيب علاقات جديدة خارج منطق القوة والحرب. وعلينا نحن أن نتبع نهج السياسة الحكيمة التي تخدمكم يا مولاي.

بلاد البرتغال جميلة وبهية، وما قام به أهلها كان وما يزال رغبة في انتقام وأخذ ثأر ممن قتلوا ملكهم وأهانوا إمبراطوريتهم. ليس لسواد عيوننا حافظوا على سلامتنا ورعايتنا يا مولاي. وبلاد البرتغال كما قلت، خاضعة الآن لحكم إسبانيا بعد توحيد العرش داخل أسرة واحدة. ربما تستعد إسبانيا لحرب موسعة ضد المنصور، ومن خلالها ضد العثماني، لا ننسى أن مرافئ إسبانية وبرتغالية موزعة على السواحل الإفريقية. حتى الكنيسة تجد فكرة البداية من المغرب بداية قضاء على الامتداد العثماني في البحر الأبيض المتوسط. هذه المرة سيكون

[9] - هي حركة تمرد وقعت في جبال غمارة بالمغرب في عام 1584م، خلال حكم السلطان أحمد المنصور الذهبي. تم قمعها بقيادة الأمير وولي العهد الشيخ المامون ومعه القائد بجة. تختلف المراجع حول سنة وقوعها بين القول ب1584، والقول ب1587م. الغالب ما ذكره الناصري في كتاب الاستقصا سنة 993ه ما يوافق 1585م تقريبا.

الجيش أكبر، والعُدة أقوى، وسنكون نحن جزءا منها. ولا أخفيك يا مولاي، لكل عمل مقابل وجزاء. ماذا سنقدمه من ضمانات وتنازلات والتزامات؟ على حساب السلطة والأرض والمال؟

. كيف سننتقل الآن يا عمي صالح من البرتغال إلى إقليم إشبيلية. ومن سيرافقنا؟ علينا أن نستعد لهذا الخيار من الآن.

. هذا أمر سندبر شأنه مع توالي الأيام. ما يزال أمامنا متسع من الوقت للاستعداد والرحيل. ربما الآن وقت التفرغ للهدية يا مولاي. ما رأيك؟ ورحم الله الشاعر الذي قال: اليوم خمر وغدا أمر، وإن كنتُ لا أشرب خمرا. أصبحت شيخا واجبُه التقوى. ولا جهاد بدون تقوى. هي عبادتي الجديدة يا مولاي.

...

كانت هدية الأم لابنها فريدةً من نوعها. اختلفت عن سابقاتها. فتاة في مقتبل العمر، يانعة كالزهور ونضرة كالورود ونقاء البذور. ستة عشر ربيعا، وجسد بض ناصع ومكتمل البيان والبنيان، في حلة لباسه الحريري الفضفاض الذي مثُل أمامه به، وخماره الذي إذا ما انسدل انسكبت خيوطه الحريرية الذهبية التي تزيده بهاء وجمالا، وتعطي لمدار الوجه إطاره الذي يرسم به حسنه وكماله. كانت المرافقة للهدية، عمة قريبة للأمير ضمنت بها سلامة الرسالة والمرسول، آثرت بياتريس تحمُّلها عبء الترحال لكي تضمن وصولها سالمة سليمة.

وكانت الأم من ربت ابنها على مقاس الذوق والاختيار والاستحسان والجذب والانشراح. ذوقه من ذوقها وامتعاضه من امتعاضها، وابتسامته من ابتسامتها ورضاها. اعتنت به كإنسان مثلما اعتنى به عمه صالح كأمير. وهل يمكن الفصل بينهما؟ حفِظ من الأشعار ما يقربه من المرحوم أبيه، كما تلقى تعاليم خطابية وسلوكية مطلوبة في الجلسات الراقية. وإلى جانب اللغة العربية تعلم من البرتغالية والقشتالية واللاتينية ما يعينه على التواصل والإدراك. لكن الأمير مولاي الشيخ له منحاه الخاص. وقد لا ينفرد به وحده بين أميرات وأمراء التاريخ. له مملكته من حاشيته الخاصة، مثلما له جنوده الخاصين وخدم متنوعين. حتى من الأسر المكونة لجاليته ومملكته في المنفى، تتضمن عائلته وعائلة عمه، وأسر من قادته المقربين الذين ظلوا على ولاء ووفاء، بعد أن ضاع مُلك مولاي محمد المتوكل بالمغرب. ألف مبرر يمتلكه الجميع للاستمرار في طقوس وتقاليد ملكية سعدية، تعود لأبيه كما لجده ومن سبقه تأسيسا وقيادة للدولة.

أما المنحى الخاص، فقد كان تحت مراقبة الجل من الذين يسهرون على حمايته. قد يخرج صباحا بعد صلاة الفجر، ومع شروق الشمس التي تطل على البحر من وراء التلال والبنايات، فيقصد منارة بيت لحم أو

"بيليم" بنطقِها المحلي. يتأمل هذا الحلم البرتغالي الذي امتلك طموحات الإمبراطورية العظمى. لم تكفهم الهند ولا بلاد جاوا، ولا بلاد إفريقيا، ها هم جعلوا قِبلتهم تجاه البحر، وليس أي بحر. هو بحر الظلمات في مخيلة قومه ومغربه. هو البلاد المستحيلة والخارجة عن دائرة الممكن، والمخندقة في دائرة المستحيل. هذا البحر المحيط أصبح عالما جديدا، طريق فاسكو دي غاما، طريق كريستوف كولومبوس، وهنري البحار. أصبح لهم أبطال كانوا مجرد شخصيات في حكايات خارقة للعادة تُروى للأطفال الصغار. عالم جديد، مورد الذهب والخيرات الجديدة، عالم جديد قصدته أوربا.

لكنه يقف هنا، متكئا على صخور هذه النافذة المفتوحة على الريح، المطلة على السفن في مجراها ذهابا وإيابا، ومرساها حيث تستقبلها جل فئات المجتمع بين عامل ومستفيد ومتفرج على الجديد. يشعر بتيه كبير وهو المنتمي إلى اللامكان، على الأقل في هذه اللحظات التي تلفحه فيها أمواج المحيط الهادر والذي لا يجيبه بلغة أو بثقافة، بقدْر ما يجيبه بطبيعة قد تدركها حواسه فيعود منتشيا من جولاته الحذرة هذه. "عليك أن تنتمي لذاتك أيها المتأمل !" هكذا يلهمه البحر.

وقد يقصد منطقة "سنترا" والتي ألهمته الروايات التي سمعها حولها، فيخصص لها يومه بأكمله. قد يحتاج إلى إذن تنقل وتجول، فيكون ذلك برعاية واستقبال. سنترا، مدينة المدرسة الفقهية الإسلامية الشهيرة، وحضن صراعات وأمجاد غابرة، تعاقب المنتصرون في رفع راياتهم فوقها، واندحر المنهزمون. لكنها اليوم والآن تشهد على خرابها بعد أن هجرها آخر المقيمين بها. طرد منها أهلها من طرف السلطات السياسية والدينية. كان مصير اليهود هو نفس المصير الذي عرفه مسلمو الأندلس تقريبا، والمنطقة شاهدة على ذلك. قد يمنع الأمير من اختراق قلعتها ودروبها الخاصة. يكتفي بجولة في المحيط والمدار أو أعلى، مطلا على لشبونة وعلى البحر من بعيد بعيد.

وهل تظن الأم بياتريس أن ابنها عذري، بريء؟ لم تلتهمه طبيعة الشهوة وتلبية الرغبة؟ ربما هديتها الأخيرة المرتبطة بخبر الاستعداد لاحتمال الرحيل، تضمنت ذلك. لكنه محافظ على صورته التي رسمْتها أمه، متكتم على مغامراته التي رغم قلتها فقد كانت باصمة على نضج رجولة وخصوبة وجدان. بالمختصر المفيد، فقد تذوق من جنان الحياة، فواكهها المحرمة. ولن تكون جنته الأولى ولا الأخيرة التي سيطرد منها، لكنه سيبقى عنده حنين كبير لها، خصوصا هذه الخرجات المغلفة بالاكتشاف أو الاصطياد أو تعلم الخطو الكبير بين الجبال والوهاد. كلاب الصيد، وخدم أوتاد الخيام، ومعلمو الرماية والنبالة والفروسية، ومعلمو الحياة الذين ترافقهم معلمات وخادمات. ولن يبوح بأسراره لأي أحد الآن.

يستحضر أمام هذه الحسناء الفاتنة ما حفظه من أشعار المتغزلين، ومن أناشيد بلاد الأندلس التي احتضنته بأدبها وعشقها قبل أن تحتضنه بفضائها وخوفها واغترابها. لو أرقه شعر ابن شهيد، بلسم روحه بما أنشده ابن خفاجة. لو قال الأول:

إذا لم تجد إلا الأسى لك صاحبا/ فلا تمنعن الدمع ينهل ساكبا

سيقول الثاني:

كفتني شكوى أن أرى المجد شاكيا/ وحسب الرزايا أن تراني باكيا

وقد يواسي روحه بقول ابن زيدون:

وأطل إلى شدو القيان إصاخة/ وتلقَّ مترعة الكؤوس دركا

تحتثها مثنى مثاني غادة/ شفعت بحَثِّ سنائها الإمساكا.

ولا ما قاله عن حبيبته، فتقاسمته الأرجاء وأرجعه الصدى بين الأكوان، وداخل الأمير وقد تشكلت أكوان عدة:

إني ذكرتك بالزهراء مشتاقا/ والأفق طلق مرأى الأرض قد راقا

وللنسيم اعتلال في أصائله/ كأنه قد رق لي فاعتل إشفاقا

نلهو بما يستميل العين من زهر/ حال الندى فيه حتى مال أعناقا

كأن أعينه إذ عاينت أرقي/ بكت لما بي فسال الدمع رقراقا

يتأمل مدونات أبيه في الفقه والغزل، وتستوقفه بعض أبيات شعر تبرر عنفوان شبابه وميله إلى تذوق نعم الدنيا التي تغريه في محيطه . يسميها محيطه بدروس الحياة الضرورية . فكيف لا يفتتن بالصهباء، والعسجد والدر؟ كيف له ألا يُسْحر بأوصاف الحوريات اللاتي وجد منهن أوصاف ونماذج من جميع الأجناس هنا بالبرتغال، وما يسمع عنها في الأندلس. لو امتلك ممر العذراوات بإشبيلية، ماذا عساه يفعل بصباه؟ وكأن البيتين من شعر أبيه، المنقوشين في الذاكرة والتاريخ، يخاطبانه ويستفزانه:

فقم بنا نصطحب صهباء صافية/ في وجهها عسجد في وجهه نقط

وانهض إليها على رغم العِدا قلقا/ فإن تأخير أوقات الصبا غلط

...

"فعلا يا أمي، وكأنك تقرئين الغيب والأكوان المخبأة في دواخلي. قعودي قلقا على حالي سيجعلني متآكلا كبيت خالٍ تنهدم جدرانه وأركانه دون أن تتخلله حياة. وهذا الصبا الذي لم أخنه يفاعة ولا تجربة، من الغلط تأخير أوقاته. من تكون هذه الفتاة الفاتنة يا أمي؟ فائقة الجمال !"

...

أجهدها السفر ودوار البحر. أتعبتها دورتها الشهرية التي مغصت أحشاءها مع كل مد وجزر لهذه المياه الثائرة. تتساءل صبح، هكذا سمتها مولاتها بياتريس، عن اختيارها لهذا التوقيت من السفر، وهي المطلعة منذ مدة على حالها ووضعها الأنثوي ودورتها الشهرية وفزعها من الرحلات البحرية. لا تجد جوابا. كما لا تمتلك اعتراضا على ما اختارته مولاتها. لم تكن جارية عندها، ولا مملوكة لبيع وشراء. ولاءٌ نعم، طاعة أكيد، لكن كل ذلك دخل في تربية ناعمة، وتعويض عن فقد مشترك.

صبح **ALBA** ، ابنة خادمها الوفي الذي رعاها ورافقها خلال استقرارها بإسبانيا. الخادم الذي آثر التضحية بحياته هو وزوجته على أن يفشي أسرار مولاته أو يكشف مكان إقامتها واختبائها. كانوا ثلاثة، تجندوا تقية للقيام بالمهمة في اغتيال أسرة محمد المسلوخ، الموزعة في شبه الجزيرة الإيبيرية. هُدِّد الخادم بالقتل فكتم أنفاسه وأغمض عينيه، صرخت زوجته حين تفاجأت بهذا الرهط الملثم الماسك لخناجر لامعة، كان نصيبها مثل زوجها، طعنات رافقت كتم الأنفاس. تحركت أصوات وانفلتت مزاليج من مواضع إغلاقها، وكانت أطياف الملثمين تتسلل في الظلام وفي هروب من المقام.

مات الأبوان، وبقيت الصبية في عالم النسيان. وجدوها صباحا ما تزال هانئة، مبتسمة في حلمها، لا علاقة لها بهذا العالم. أخذوها يتيمة فتبنتها سيدة النعمة وسبب هذا البلاء. تغير الحضن بحضن آخر، وتم تمشيط الأنحاء، بل استعجلت بياتريس الفارس السريع، الذي يسابق الريح والنهر على ضفافه، وحتى السفن التي تمخر صدره الطويل العريض، هذا الوادي الكبير الذي كتم أسرار كل الحكايات، ما وقع منها وما لم يقع. سارعت الرسالة كما المرسول للتحذير والحيطة. وحينما استنفر الأمير ناصر حاشية الأمير مولاي الشيخ

والأسر المرافقة، تغيرت المواقع كما الأسماء كما التحركات. أصبح الليل يقظة عند الحراس واستمر الحال رغم فلتات الأمان النادرة أو التي تستغل مخاطرة ومغامرة.

نالت ALBA أو صبح تسميتها يومها مع إشراقة شمس ذلك اليوم، وتم تعميدها بعد سنتين من وقوع الحادث. ها هي الآن بمقام الأمير مولاي الشيخ، الذي اندهش لهدية أمه واعتبرها باهظة نادرة، ياقوتة يجب الحفاظ عليها وحمايتها من كل سوء قد يهدد صحتها وسلامتها. سيلتقي أمه في ما بعد، وسيسألها عن سر الحكاية والهدية. مر شهر على مقامها في بيئتها الجديدة، نالت من الرعاية الجديدة ما به تم التعرف على شخصيتها ومحكي قصتها. كانت فعلا سفيرة منتقاة بين الأم وابنها، حاملة لرسالة محفوظة وأخرى عملية، وكان الابن ذلك النجيب الذي استُدرج لدروسه العليا كي ينجح في امتحاناتها ولكي يتجنب مخاطراته ومغامراته وتجاربه فيها.

...

" مولاي الملك، فيليب الثاني، ملك إسبانيا والبرتغال والغرب، حاكم البلاد والعباد، والشمس المشرقة في أرجاء البلاد،

مطيعتك وخادمة كنيستك ومقدسة نعمتك، بياتريس أرملة محمد المتوكل المغدور به دفاعا عن صليب المسيحية وأعتاب مملكتك،

أجد في طلبي ما يخدم أوامرك، ويبعد القلاقل عن مملكتك.

إنه ابني مولاي الشيخ، الأمير الموري المقيم بجناح مملكتكم ببلاد البرتغال. نريد بطلبنا التقرب من رضاك وتحقيق أمانيك في كسر عود وبطش المسلمين وإزعاجهم للبلاد بالبر والبحر. ونجد في قرارك كامل كمالك وعصمتك.

ها هو ابني مولاي الشيخ قد أصبح جاهزا، جنديا مطيعا، مستعدا للدفاع عن أسوار مملكتكم وأشعة شمسها الممتدة في الاتجاهات الأربعة. نريده أن يتقرب أكثر من طاعتك ويزيد في ولائك، وأن تحتضنه بلاد جنتكم إشبيلية وأدعية كنيستها الكاثوليكية. إذا سمحتم بذلك يا مولاي، ستكون الأم وابنها دائما في خدمتك وطاعتك.

كل اعترافاتي اليومية والأسبوعية جعلتها كلمة صادقة ودعاء طاهرا لكم يا مولاي.

تقبلوا منا ما به اجتهدنا وأطعنا وتقربنا،

وليبجَّل الأب والابن والروح القدس. آمين، آمين، آمين"

...

كان فيليب الثاني قد ورث الإمبراطورية من والده كارلوس شارلكان الخامس وأمه إيزابيل إغيس. تولى العرش عام 1580، بعد أزمة الأسرة الحاكمة التي تلت وفاة الملك الشاب سيباستيان الأول في معركة القصر الكبير. وقد حقق وحدة البلاد الإيبيرية التي استمرت لمدة ستين عاما تقريبا. وطبعا، رأى في طلب بياتريس انفتاح صفحة للاستمرار في الحرب المقدسة الصليبية ضد الإسلام والمسلمين، وضد بلاد المغرب الذي يهدد أمن المملكة الإيبيرية، إنْ برا بدولته وخلافاته، أو بحرا بسبب الأسطول العثماني وعمل القراصنة الذي أصبح تهديده كبيرا جدا، يوازي تهديد دولة كبيرة سواء على الساحل الأطلسي أو في حوض البحر الأبيض المتوسط. لكن التهديدات التي يواجهها فيليب الثاني اتخذت عدوا من الداخل، تجلى في محاربة البروتستانية التي اكتست أنحاء من أوربا، وأصبحت تهدد الكنيسة الكاثوليكية التي يمتن لها بالولاء. ها هو الأمير الإفريقي قد شبّ وأصبح قادرا على حمل السلاح وخوض المعارك. آن الأوان لكي يوظف هو وحاشيته في معارك ملك إسبانيا بحسب الظروف والضرورة.

بعد مشاورة حاشيته ومستشاريه ومقربيه، وبعد إذن الكنيسة في الخطوة التي سيقدم عليها، سمح للأمير مولاي الشيخ بالقدوم إلى إقليم إشبيلية، هو وحاشيته. اتَّخذ كلُّ ذلك شكلَ طلبٍ سيَمنّ من خلاله الملك الإسباني على الأمير الإفريقي.

وطبعا، رأت بياتريس في كل هذا أن الدنيا قد انفتحت بعهد جديد، وبدا الأمل في استعادة مملكة المغرب أكثر سهولة مما مضى. أخيرا، استطاعت بياتريس أن تهنأ في نومها وحلمها، وأن تنتصر على سحابة الرحمانية أم عبدالملك وراعية أحمد المنصور في حكمه. ها هما الآن ملكتان تقومان بأدوارهما العليا داخل حلبة الصراع الدولي الذي يمتد شرقا وغربا. على الأمراء جلب الثروات، وعلى الملكات تدبير السياسات. إذا كانت

سحابة الرحمانية قد حققت خطتها وسياستها بتقربها من باب السدة العالية للإمبراطورية العثمانية، وجعلت من ابنها الذي كان فارا، ملكا، ثم من بعده ابن ضرتها مسعودة الوزكيتية، ملكا، فها هي حاملة الصليب قد استعادت الإمساك بشراع سفينتها لكي تواجه سحابة ومسعودة وما تم بناؤه معهما على حساب زوجها محمد المتوكل الهالك وابنها المقيم في منفاه. ستنضاف إليهما أسماء أخريات من مثل لالة جوهرة الخيزران وشيبانية ولالة مريم، زيجات الملك أحمد المنصور السعدي

ستكون هناك مراسلات توضيحية وتخطيطية بين بياتريس وعم الأمير، مولاي صالح. وسيطمئن هذا الأخير لما تم التوصل إليه. على الأقل، بقيت خطوتان أو ثلاث من أجل خوض غمار جهاد جديد واسترجاع حق خلافة اغتصبه من استنصروا بقاتل أبيهم غباء وبلادة وإهانة وإذلالا لأمجاد الأسرة السعدية. ما يزال تصور العم صالح لاستقطاب مسلمي الأندلس قائما، إن داخل الأندلس أو خارجها. هو رهان داخل رهانات لا تُطمْئن في مجملها، مثل الرياح التي قد تأتي بما لا تشتهيه السفن. هذه السفن التي ستحمله بحرا ونهرا إلى إقليم إشبيلية، ولا يدري بعدها كيف ومتى سيعبر بها مضيق جبل طارق أو ذلك المحيط الأطلسي جنوبا. مرافئ عديدة أصبحت تشغل باله، أيها ستكون المناسبة في حملته ضد أحمد المنصور؟

...

كانت صبح ALBA على دين مولاها. طاهرة معتكفة، متعلمة للغة العربية مثل تعلمها للغة القشتالية وكذا اللاتينية، حافظة لبعض سور القرآن الكريم وأدعية الدين الحكيم مثل حفظها لتراتيل الكنيسة وترانيمها البديعة. واضحة وصريحة وصادقة. رأى فيها مولاي الشيخ ما أبهره، وجعله يتراجع عن كل عجرفة أو غطرسة قد تكون من شيم الأمراء وأصحاب النفوذ الذين يحيون بها أرواحا أو يميتون بها أخرى، تجعل تقاسمهم للقضاء والقدر قوة وقدرة، شهوة ورغبة، لذة وسعادة، مع الآلهة الحاكمة للتاريخ، وإن كانوا لا

يجعلون مواجهة مباشرة مع إلههم الأعظم والأكبر. قد يقتل الأب ابنه، والأ خ أخاه، وهكذا، تحقيقا لرغبة الملك والتملك، وبسط النفوذ والسلطة، وبالمال يكون لهم التفرد.

بعد أن استعادت صبح عافيتها وسلامة صحتها من تعب ومغص الحيض والسفر ودوار البحر والنهر، صَفَتْ ابتسامتها كأنها شمس ناعمة في فصل ربيع هادئ. ورغم أن فصل الربيع لم يحل بعد، ولم تزهر به ورووده، كما لم يُفح برحيقه، إلا أن إطلالاتها كانت مجرة جمال فاتن وكوكب سعادة مشرق كمحكيات أبيه وعمه عن الواحات الخضراء في فيافي الصحراء. كانت روح الأمير متصحرة فعلا. فكل أشكال التمرد التي جرّبها، وامتلاك القوة التي مارسها، وتحقيق الرغبة التي بالغ فيها بالطريقة التي يراها متحدية لمحيطه وما يكبل حرية أجنحته، كانت شمسا مزيفة لا تترجم هَمَّه الوجودي الذي سيق فيه وإليه. كل أشكال الأدب والشعر التي تلقاها أمجادا لشجرته أو غزلا لمسامراته أو تصوفا عاشقا لوجدانياته أو ملحمات مجيشة لهِمّته وشجاعته، كلها أشكال لم تشف غليله، وتَسقِ روحه. ذلك الرحيق المختوم، وذلك الكوثر الذي فيه يسبح ويتروى ويعوم، لم يجده بعد. إذا أجّله من يقظة إلى حلم نوم، انفلت. وإذا استفاق من أمل حلم وحاول تحقيقه تأويلا وتنزيلا، انزلق مثل زئبق، انفلت كذلك.

هي صبح التي ملأت كونه فكانت إشراقة مستمرة كمحكيات النجوم والكواكب عند العلماء، التي يطول فيها النهار لشهور وشهور، و(ليلة القدر خير من ألف شهر)، وأنت يا صبح في النهار شمس وبالليل بدر، مشرقة مشعة. هكذا انطبع قلبه ولسانه فأصبح شاعرا مثل أبيه، حكيما مثل أسرته السعدية. لكن أسرته السعدية، يبدو أن بركة الزاوية قد هجرتها مفرقة بين الإخوة الذين أصبحوا أعداء وكذلك نسلهم استمروا في هذا الغباء، إلى يوم الدين، وما أدراك ما يوم الدين. يتأمل الكلمة، ويراودها لعبا بتنويع شكلها محافظا على رسمها: ماذا لو كان هو يوم سداد الدَّين؟ والدَّيْن من الدِّين. لكن الدَّيْن الدنيوي واضح هنا. حق وخلاص

بين الأنام. هو كأمير له دَيْن عند أعمامه وذويه، وعليه دَيْن تجاه محتضنيه، هذه الكنيسة من هذه الدولة الإيبيرية التي تريده أداة حرب وضغط على بلاده وأمته وذويه. (ومن أنا؟). سؤاله الذي يؤرقه. (ألم يكن أبي على حق وصواب حينما استنصر بالنصارى لأنه عدِم النصرة من المسلمين "ما استنصرتُ بالنصارى حتى عدمت النصرة من المسلمين" ألم يكن أبي صاحب فتوى وفقه؟ ألم يؤيده علماء وشيوخ؟ بل منهم من رفع راية حربه في معركة القصر الكبير؟

من أنا داخل كل هذا؟ أمير منفي رافقتْه حاشيته وأقرباؤه وذويه. طاقم دولة في إقامة مؤقتة لا يمتلك أرضا. حتى الثروة التي بين يديه، تستنزفها ظروف المنفى ومكوسٌ مؤدّاة توفيرا لأمن ووقاية وسلامة من شرور أنام.

ومن أنا؟ الأعين المتربصة بهيئتي وطلعتي، تراني هنا ببلاد الإفرنج غريبا في سُمرته، بل الأعقد من ذلك أسمر غريبا في إمارته وثروته. حتى لباسي يبدو غريبا في مرآة تصوراتهم وتخيلاتهم. لعله قرصان منفلت من مرفإ أو هارب بصناديق من حَمْلة، وبدل أن يذهب الجاه الذي يحمله إلى خزائنه، تُراه فارًّا به في أسلوب عيش منفرد قلّ نظيره.

من أنا؟

ويشكو، ويُفرغ شجونه على صبح، صبحُه الذي يبلسم أرقه وقلقه. وهي المبتسِمة والمستمعة والمقتصدة في الكلام والمواساة، والمبلسمة بحِكمها المحفوظة ولمساتها المهدئة. وكأنها وصفة طبية تتحقق معها المداواة. وكانت فعلا وصفة تعلّم معها الأمير أدب القبلة والفراش، وأسلوب الغرام وجلسات العشق والنديم. يكفيه من صبح حضورها، ويكفيه منها قَبولها، وأوقاتها التي تكون منتقاة بحسب برنامج كل نهار وأولوياته الموزعة توازنا فوق مملكته المحمولة عرشا فوق سحب، والمسافرة حلما مع مهب الريح، كأنها وردة الريح ومملكته. بل لنقل هي رياح متضاربة بين الشرق والغرب، يكون كل حدث وقع ويقع مؤثرا بصداه في تحولاتها كتحولات

أحوال الطقس هنا على ضفاف المحيط الأطلسي وهذا الساحل البرتغالي الممتد شريطا وأفقا بين الشمال والجنوب، بين فيانا وبورتو وأفيرو ولشبونة وفارو.

...

حينما يجلس الأمير، المنفيّ طفولةً وصبا وشبابا، بمفرده، وفي خلوته التي تفرضها أوقات من الليل والنهار، يشعر بنمو ذلك الفراغ الذاتي المرتبط بدواخله. هذه الأرض التي يوجد فيها ليست أرضه، وهؤلاء القوم الذين يلاحظونه من قريب أو بعيد، يشعر بتوجساتهم وفضولهم المتخوف منه كمسلم وكلاجئٍ له حماية خاصة. لماذا تم طرد المسلمين واليهود من بلاد إيبيريا وبقي فيها هذا الأمير الإفريقي الذي يدعي استحقاقه للملك؟

. من منا لا يحتاج إلى البكاء يا مولاي؟

تخترق عليه صبح خلوته، فتجده سابحا في دموعه الصامتة. لم تسأله لماذا. احتضنته وضمته وعانقته. أصبحت آماله وليس جارية معشوقة. أصبحت مَرْيَمَه العذراء التي تستطيع ولوج دواخل روح الإنسان وزوايا نفسيته العميقة وطبقاتها. هي ذي صبح، ملاك بعثه الله له لكي يؤنسه ويراقصه، ويداعبه، ولكي يعتكف به تعبدا داخل روحه التي ذوبت كل الفوارق وكل اللغات وكل أشكال السياج التي تشرخ البشرية.

. أنتِ مني يا صبح، وشمسي التي تدفئ وجداني، وتنير درب روحي في عتمة هذا العدم البارد برودة المناطق الجليدية البعيدة في الشمال.

. دعني يا مولاي أهيّءِ لك جلسة خاصة بالروح، ستكون وصفتنا ورحلتنا الخالدة الخاصة بنا، وبعدها، لا يهم ماذا سيقع، وكيف سنصير فيه.

. لك ذلك يا صبحَ أمسياتي وأنهري.

ـ ما صلاتك الليلة يا مولاي؟

. عشاء ونوافل وشفع ووتر.

. ما دعاؤك واستغفارك لخالقك؟

. ما علّمني إياه مذهب أبي الفقهي وإمامنا أبو الغيث، أحفظه منذ صغري وأتشبث بحبل نجاته حتى لا أغرق في هموم الواقع.

. ما استعدادك للسفر وللخمرة والعروج؟

. ما حملني فيه سحاب خيالك، وما سقيتني به أقداحا وغنّيته لي أشعارا، وما رافق هذا وذاك عشقا بيننا ولنا. أو تعلمين يا صبح، لم يعدْ لي عالم أنشده غيرك هدفا في الوجود والحياة. أنت أندلسي ومغربي وكفى.

. وكفاك يا مولاي. أنت أميرٌ وصاحبُ حقٍّ عادل، وسفيرُ حياة.

. وماذا تعنين بسفير حياة؟

. حان وقت الرحلة يا مولاي. أرى أنك لم تقم بفرائضك التي تسبقها. حينها ستسافر وسنسافر، وستكون سفير حياة إلى عالم لا يؤمن بالزمن ولا بالمكان في تقسيماتهما المعتادة.

...

احترقت الكتب والمخطوطات. كانت ألسنة النار متراقصة يومها، وكانت حفلة تاريخية شهدتها الأعين المستديرة واللامعة استغرابا وانفعالا وتهليلا وتفاعلا. القساوسة في قلنسواتهم وعباءاتهم القطنية، وجنود الكنيسة بنعالهم الجلدية وخوذاتهم البنية والسوداء. العربات التي حملت الكتب، فألقى بها الزبانية إلى النار،

وصارخين بأعلى أصواتهم، ودافعين بأرجلهم ما تناثر أو تطاير أو سقط من صحف ومخطوطات مطوية وملفوفة. وكأنها شطائر لحم مقدد مُعَدٍّ لوليمة عشاء كبيرة، لكنها لم تكن في عيني بطرس الصغير، هكذا تسميته، سوى أبواب جهنم لوليمة جهلٍ سيدخلها هؤلاء الهائجون وكذا جنود الكنيسة الذين اتفقوا على إحراق كل ما يمت بصلة للإسلام والمسلمين.

رأى بطرس الصغير في جسد النار ذلك العجل الذهبي الذي صنعه السامرائي لبني إسرائيل، وجعلوا له صوتا له خوار، ضدا في موسى وضدا في غيابه عنهم بعد أن أنقذهم، وقد طال عنهم غيابه أعلى الجبل. يريد أن يأتيهم بنور السماء، ويريدون التعلق بجهل الأرض في غباء. كذلك مصير نور هذه الكتب بين أيدي الجهلاء.

كان بطرس حينها صغير السن فعلا. أربعة عشر عاما تقريبا. ما تزال ذاكرته تسجل الحدث، وما يزال يرويه لمن جاء بعده ووالاه في تعلمه وتعليمه. هو الآن في التسعين من عمره، لكنه يبتسم لكونه شارك بعض اليهود والمسلمين جناية إخفاء بعض الكتب والمخطوطات. لعلها هي التي أنارت دروب عقله فجعلته يرغب في العيش ليكتشف أكثر ويعلّم أكبر عدد من مريديه. بل لعلها هي التي أنارت درب العالم الآتي زمنا وتاريخا وعلما وحضارة.

حينما عمّد الفتاة التي مثُلت أمامه، رأى فيها نور الكنيسة الجديد، ربما سيشرق بحياة يوم جديد، ليس كما سبقه من الأيام. حينما سأل عن تسميتها، وإن كانت تحتاج إلى تسمية كنسية، استحسن اختيار السيدة بياتريس بين إشراق وصبح وابتسامة. (لنسمِّها صبح **ALBA**). فعلا هي صبح، وستكون صبحا مشرقا ومبتسما للأوفياء المخلصين.

كانت مدينتا إشبيلية وكرمونة وتخومهما، من الأماكن التي استمر فيها تواجد الموريسكيين، وكان القس بطرس في حاجة إلى مزيد من كتب العرب والمسلمين. له أصدقاء، لكنه رأى في تعليم صبح سفارة جميلة بين الأديان

والأنام. اكتشف عندها عبقرية وعقلا فَطِنًا وقدرة على التعلم والإدراك والتعبير السريع بكل ما امتلكته من اللغات. هذه الطفلة التي استطاعت حفظ واستيعاب كل ما لقنه إياها، كانت تلميذة من خارج إطار الكنيسة ورقابتها، يستطيع جعل رسائله الفكرية والأدبية، على الأقل، على لسانها. فكيف ستسافر الأفكار معها؟

...

وكان ابن الفارض من المتصوفة الذين أبدعوا وفلسفوا وسلكوا. ويُطرح السؤال:

. ولكن، لماذا ابن الفارض؟

. لأن أشعاره وفلسفته الصوفية والسلوكية مناسبة للبشرية اليوم، حتى تخرج من جحيم جهنها التي رسمتها حروبا وكراهية باسم الدين، والله بريء مما يفعلون.

لقد حفظت صبح هذه القصيدة الخمرية مترجمةً بلغة بطرس. وحينما تعلمت اللغة العربية، اطلعت عليها بلغتها الأصلية، فأبحرت في يمها زيادة في العشق الإلهي. كانت بالفعل سفيرة للعشق الإلهي. لكن، بروحٍ ليست هي الجسد. لم يستطع أحد تخليصها من قدر الجارية والتابعة والخادمة، مثل قدر سيدنا يوسف عليه السلام.

استفاد القس بطرس من مساعدة ترجمان يهودي عمل في ديوان غرناطة قبل استسلامها، والذي لم يكن مجرد ترجمان فقط، كان فيلسوفا معتكفا في كتابة المخطوطات. ابتكر بعبقريته طرقا لحفظ المدونات ولتخزينها ولحمايتها، مثلما ابتكر المسلمون لغة ورسما جديدين لحماية تراثهما وفكرهما الأندلسيين[10]. هكذا كان اللقاء

[10] ـ لغة الخيميادو الأعجمية أو العجمية، التي تستر بها المسلمون على لغة ودينهم وثقافتهم.. يتم إغناء المادة في الإحالة

عاشقا للكتابة، وهكذا اكتشف القس بطرس فلسفة الشرق والتصوف عند ابن الفارض. كان مخطوطا على جلد حصان مدبوغ. متسعا لرقعةٍ ضمّت خمرية ابن الفارض في واحد وأربعين بيتا.

كان بنميمون قد تمسّح حفاظا على حياته، لكنه كان قد صهر فلسفة تجاوزت تمزق البشرية بين ديانات متناحرة. يؤمن بأن الخلود للفعل، وأن الذات فانية بما أوتيت من حركة وقوة وشهوة ورغبة. الخلود لما ستنجزه وتتركه بعد فنائها. وقد بدا عنده تأثير الحلاج وابن عربي من المتصوفة المسلمين متكاملا مع تأثير حركة التصوف المسيحية واليهودية عموما. وكانت الخمرية من بين جسور التلاقي بين عشاق الحب الإلهي، حيث الإنسانية بعيدة عن الحروب وعن الكراهية، قريبة من النور الإلهي الخالد. هكذا كان تلقيه هو ومن معه لهذه القصيدة الفريدة.

...

ما تعلمه الأمير من صبح هو عدم الاستعجال في تلبية الغرائز وتحقيق مبتغى اللذائذ. بدءا من الطعام، وما يسقى من شراب، ووصولا إلى رغبة الجسد في الجسد، حيث العقل موجّهٌ ومتحكم.

توضّأ وصلى فريضته ونوافله. شعر بذلك الخشوع الكامل الذي لا يستعجله في أمر دنيوي. كانت صبح قد غابت عنه لحوائجها، استعدادا، وكان اللقاء المتجدد. لكن هذه المرة مع ابن الفارض. من بين فضاءات الإقامة التي تأوي الأمير بلشبونة، اختارت صبح غرفة علوية تمتلك بوابة صغيرة ونافذة مطلة على السماء. جعلت فرشها زربية مخملية، وعطرت أرجاءها بمسك وعود وعنبر. تلك المساند الكبيرة التي تحيط بجدرانها الأربعة، وطاولة صغيرة مستديرة عليها قارورة ماء، لا تسقي إلا بتجرعها بفم واشتهاء.

. مولاي. هذه الأبيات التي أحفظها، ستكون رحلتنا لهذه الليلة، بحيث إننا سنسافر داخل معانيها بأرواحنا وخيالنا وأعماق وجداننا. اسمع يا مولاي ما يقوله الشاعر !

وبدأت في ترنيم الأبيات بلحن مناسب للطرب ومناسب لهدوء اللقاء:

شربنا على ذكر الحبيب مدامة/ سكرنا بها، من قبل أن يُخلق الكرم

لها البدرُ كأسٌ وهي شمسٌ يديرها/ هلال، وكم يبدو إذا مُزِجت نجمُ

ولولا شذاها ما اهتديتُ لحانِها/ ولولا سناها ما تصوّرها الوهم

. أغمِضْ عينيك، وردّدْ معي يا مولاي هذا الإنشاد !

واستمر السفر عبر موجات وإيقاع القصيدة، وكانت صبح كل مرة توازن مقام الأمير فوق سفينة الإبحار، إلى أن قالت:

ولطف الأواني، في الحقيقة تابعٌ/ للطف المعاني والمعاني بها تنمو

وقد وقع التفريق، والكل واحدٌ/ فأرواحنا خمر وأشباحنا كرمُ.

كانت أناملها تعزف على ساعدي الأمير، الذي استسلم للغناء الجميل والمعاني المعبّرة. مسدت على شعره الأسود المنسدل والذي عفا عن جانبيه فأعطاه بهاء ووسامة رجولية:

. لا تفتح عينيك يا مولاي الأمير. أنت الآن في أمان الرحلة والسفر والرفقة. دعنا نرتقي أنا وأنت الآن، بعد أن سبحنا وغرقنا في الصورة الأولى الخارجية لشعر ابن الفارض. ما رأيك أن نخلّص أجسامنا من شهواتها، ونفوسنا من إثاراتها الغريزية. سنجد مع ابن الفارض، ومع من شرّح القصيدة وأظهر المقصود، وطهّر الروح من شوائب الكون الموجود، ذلك الرقي المقرّب للمحبوب، خالق الكون، وموجِد كل موجود. في ثيابي،

تجدني مثيرة، وفي مفاتني السرية تجدني فريسة شهية، وفي عربي أُخلّصك من منتهى الشهوة والنشوة. وبعد كل هذا يا مولاي، أدعوك للارتقاء، للسمو.

افتَحْ عينيك يا مولاي !

وكأنها رحلة دهر وعمر. كان الفانوس الوحيد الذي يبعث نوره بالكاد يرسم طيف الجسدين، ويموّجِ الأشياء التي تؤثث فضاء الغرفة الصغيرة. كانت جدرانها الحجرية السميكة معبّرةً عن إخلاصها لوفاء هذا الزوج الذي طهر الأركان والأرواح، محافظة على ذلك الصمت المرغوب في تحقيق المطلوب. استلهما من بصيص لازورد بعثته النافذة اليتيمة في الغرفة فكرة تسلق درج عالٍ بجانبها. أن يستلقيا، كلٌّ بجانب الآخر متأمّلين نجوم المساء، منتظرين بزوغ فجر يوم جديد. لم تعد الرغبة مجرد شهوة. أصبحت طقسا يقود إلى تأملات الروح والوجدان.

مجرى الوادي الكبير

سباحة ضد التيار

1589

كان إبحارا مخالفا لما سبقه. تميز الأول بذلك الرعب النفسي الذي ساد دواخل الأمير، رغم كونه كان طفلا وصبيا. شعر بذلك الجزر الذي امتلك ذاته. ولم تكن كلمة جزر لتحضر مع السنين، وتترجم ذلك الشعور، لولا أنه عاش الأحداث وتجندت حواسه لكي تسجلها وتجعلها في مقدمة الوعي والشعور. لن ينساها أبدا، تلك اللحظات التي كان الفزع والرعب يسودان الجماعة المحيطة به أكثر مما يسودانه. ذلك الصمت الغريب الذي كان يسود للحظات ويمتد خلالها كأنه عمّر داخلها لعهود زمنية طويلة غير مقيسة. قد ينمحي معها تسلسل اللحظات والزمن وعقاربه، لكنه يسجلها في نفسيته المرعوبة. قد تنعدم الأحاسيس ويصبح اللاشيء ممتلكا للمعنى. حتى من يديه، كان هناك من يقتاده منهما دون إدراكه بما يقع، إسراعا وارتباكا. حتى من كتفيه، ربما أحصى عدد المرات التي دُفع فيها من خلالهما: أسرعْ يا مولايْ. هيّا يا أمير. **Despacha te**.

كبر حجم الجزر الذي يَّبَ دواخله فجعلها قاحلة من ألوان حياة. كلما مرت الأسابيع والأشهر وتراكمت السنوات، وجد ذلك الجزر فاصلا له كجزيرة عن أمواج شاطئ عاد مهجورا ورملا جافا. كم احتاج لهواء نقي يستنشقه من مكان أعلى، بعيد عن كل برٍ أو منبسطه. ربما تمتلك السماء علاجها وبلسمها وحلولها، لإنقاذه من هذا الجزر الذي سيتركه سمكة مهجورة بين صخور منسية. رغم جمال ما رآه في لشبونة وقرى وأبراج بلاد البرتغال، رغم ما غامر به كإنسان عاش للحرية ينطلق مثل عصفور يحلق دانيا بين فروع وأغصان الأشجار، لا تقيده أسيجة فاصلة بين حقول وجنان، ظل ذلك الرعب الأول مشكلا لخوف مرضي قد يوقظه ليلا في فزع، وقد يؤرقه ويذهب عنه طمأنينته وهناءه.

تنهّد متحسّرا ومترددا وهو يتأمل السفن الأربع المخصصة لرحلته الجديدة. لم يرغب في أن يكون أميرها هنا في هذه الوضعية. الوجهة إسبانيا، بلاد الأندلس، إشبيلية. المهمة احتضان جديد لمهمته. وكأنه مشعل سينتقل مِن يد حاكم البرتغال إلى يد ملك إسبانيا. سيكون الأمير مولاي الشيخ فتيله الذي سيُسَخَّر لإشعال النار وإضاءة الطريق. لمن؟ لا يدري. ربما حطب هذه النار لم يتهيّأ بعد كفاية بلشبونة.

هي إسبانيا إذا، القوة الجديدة التي باركتها كنيسة روما، والتي استطاعت طرد واستئصال المسلمين من إيبيريا. إسبانيا بقيادة القشتاليين وبحكام وأمراء جدد، عليهم تخليص المسيحيين من لعنة وتهديد المحمديين المستمرين. ما سمعه في كواليس مستشاريه، أن هناك تقارب بين ملك إسبانيا والحكم السعدي بالمغرب. فكيف ستكون رسالته ومهمته الجديدة داخل هذا التقارب؟

ويعود لمشهده الجاد، رغم تلاطم أمواج المرفإ على الصخور وعلى جوانب السفن. بيده لائحة المُرَحّلين معه من حاشيته وجنده. العدد مئات معدودة. فهل سيكون كافيا لخوض حرب برجاله واسترجاع حق؟ هل سيستعين بالصغار إلى جانب الكبار، وبالنساء إلى جانب الرجال في المهمة؟ شعر مع هذا العدد بأنه رهينة فقط، تم تدريبها وتهييئها لكي تكون مستعدة، متى طلبوا منها ذلك حتى تقع في أسر ما. من هم هؤلاء الذين سيطلبونه أسيرا أوَ أداة على الأقل في الرهانات السياسية بين الشرق والغرب؟ لا جواب نهائي أو قرارا واضحا في شأنهم. هُمُ المجهول، لكنهم هم كذلك كل هؤلاء.

تقاسم مع عمه مولاي ناصر المهام في قيادة السفن الأربع. كانت مكتراة بأطقمها وبرخص إبحارها. عليهم تجنب كل انجراف مع أمواج المحيط مبتعدين عن شواطئ الأمان، حتى لا يقعوا في الأسر وطعمة مستساغة في يد القراصنة. هؤلاء الذين فاوض عمه مولاي ناصر بعضهم في ما يريده مستقبلا، لكنه لم يتلق إجابات نهائية من طرفهم. هم ملوك البحار، وغنائمهم ثروتهم وأداوت تفاوضهم وسياستهم وديبلوماسيتهم.

كانت خريطة الإبحار أمام الأمير نازلة بخطها الموازي للبر والذي يميل عموديا حتى مرفأ كوريا ديل ريو. وبعده سيكون ولوج الوادي الكبير محتضِنا لهم بين ضفافه وفوق بساط نهره، قاصدين سبيله حتى إشبيلية.

أكثر من عشر سنوات طواها العمر، ولبستها البرتغال ألوان حياة، فشكلت بها ذاته وشخصيته. تعلّم الكثير فعلا من دروس الحياة ومن الإعداد لما هو آت. لا متعة أسعدته في كل هذا، إلا ما كان من رفقة صبح له. كلما فرغ من متعة مادية، كانت الأرض تنشق غائرة بكل ما حققته له من رغبات ومتع. تتركه على شفا جرف هار يكاد يسّقط به فيه.

كانت سنة 1589، مفترق طرق حياتية ومكانية وسياسية هنا وهناك. ارتأى العم مولاي ناصر، ومن خلال الأخبار التي تصله متقطعة أو مسترسلة من هنا وهناك، بأن الوقت قد حان لتنظيم حملة عسكرية ضد أحمد المنصور. فكلما تراكمت السنون، كلما تعقدت المهمة. بالكاد تخلص أحمد المنصور من ثورة الحاج قرقوش، ولابد له أن يمضي في أفقٍ أكبر سيسجل عظمة المُلك السعدي. فقد بدأ أحمد المنصور يستعد لغزو بلاد إفريقيا والسودان. وحينما ناقش مولاي ناصر مع ابن أخيه الوضع، لاحظ أن حماسه لم يتهيأ بعد، وهِمّته ما تزال فاترة. هل هو جبن؟ هل يكون لصبح دور في إضعاف قواه ومقصده؟ استغرب العم لهذه السنوات التي ذهبت سدى في الإعداد لاسترجاع المُلك وجعل الأمور في نصابها من جديد. في عيني مولاي الشيخ، شاب لم يرتوِ بعد من ملاذ الحياة، ولم تتحكم فيه بعد عصبية السلطة والانتقام والثأر واسترجاع الملك. الأمير ناصر الذي احترق بتبعات صراع بين محمد المتوكل وعمّيه، بين أسر الخلافة السعدية، وجد كفة العدل التي لا يحكمها الدين ولا العقيدة، تحكمها تحالفات سياسية، وانتماءات عصبية وقبلية. وكأن حكم محمد المتوكل لم يكن سوى غلطة في التاريخ يجب تصحيحها. حتى من مقتله فقد كان شنيعا لم يره واقعا وحادثا من قبل.

تمثيل وتنكيل وسحل وتشويه لاحق الجثة كما السمعة، كما السياسة. وكأن المتوكل وحده المخطئ، في الوقت الذي تحالف كل طرف مع الأعداء.

كان موعد إقلاع وإبحار السفن الأربع قد اقترب. كانت صبح ALBA كما الجارية نور على متن سفينة الأمير مولاي الشيخ. وفي جلستهما الحاسمة حول القرار المناسب اتخاذه، ارتأى الأمير أن يجعل من مستقره في إقليم إشبيلية محطة إعداد أكبر للحملة، في حين رأى العم مولاي ناصر الأمور من زاوية أخرى:

انشغال إسبانيا بحربها ضد الإنجليز، وتعدد جبهات قتالها في هولاندا وإيطاليا وغيرها من الأماكن، يجعل القيام بحملة ضد المغرب أمرا مؤجلا. ثم ما هي التنازلات التي ستكون شروطا استسلامية قبل بداية أي معركة أو خطوة؟ لا يملك الأمير السعدي مولاي الشيخ أي عنصر قوة يجعله مفاوضا ومتوافقا حولها. ما يملكه هو انقياده لأوامر مسيحية وسياسية إسبانية بالأساس. وفي نهاية المطاف، كانت البرتغال تساس من داخل البلاط القشتالي بإسبانيا.

عشر سنوات مرت. تقوى فيها نظام وجيش أحمد المنصور أكثر. أصبحت له تحالفات أخافت الإسبان مثلما تخيفهم تحركات العثمانيين. لابد من سند داخل بلاد المغرب، ومن طرف القراصنة، مع الرهان على النازحين من بلاد الأندلس، في معادلة جديدة خارج التأثير القشتالي.

. يا عم. دعنا الآن نتحرك جنوبا، وبعدها نرى ما يمكن اتخاذه كقرار. أنت تعلم أن قراري سياسي أكثر منه عسكري. لابد من الصبر حتى تتقوى حظوظنا.

رأى العم أن أفق خطاب شاب في مقتبل العمر مغاير لخطابه هو الذي وجب عليه أن يحسم الأمور وهو ممتلك لقدرة بدنية وعقلية، لما تبقى له من هذا العمر القصير. ولعل توزيع راكبي السفن المخصصة للرحلة رسم الاختيارين، خصوصا وأن العم مولاي ناصر، كان هو المكلف بالحاشية المدربة عسكريا وأمنيا. لقد

بدت الحيرة مؤرقة للعم، لكنه تعود على الأرق بحيث أصبح النوم يقظة وأُهبة عذاب مقتطعة من جفونه التي حفرها سقم النفي وتباعد الآمال مع الإمكانيات. من واجبه حماية ابن أخيه، بل إن شرعية ما بدأه مرهون بحمايته فعلا. لكن، من واجبه إبعاده عن كل استسلام، وكذا تغيير وجهة الاجتهاد السياسي الذي يجلبه لحضن العيش الرغد داخل المجتمع الإسباني تحت رعاية القشتاليين. لا إمساك له بناصية عوالم صبح، ولا بتحكم أم الأمير بياتريس في مجريات الأمور. ففي نهاية المطاف، كانت هي السيدة الأولى في التفاوض مع رجال الدين ومع القادة السياسيين، نقطة ضعف الأمير طبعا.

تمخر السفن عباب البحر، وملامح البر لا تغيب عن مراقبيها. وأخيرا، ها هو مصب الوادي الكبير. لم يكن مجرد ماء يجري، كان تاريخا يرويه المصب وهديره. فعبره طُرد كم من المسلمين من بلاد الأندلس. وعبره توجهت الحملات إلى ما وراء بحر الظلمات، تلك البلاد البعيدة التي أصبحت تجلب الذهب والفضة والثروات، والتي أصبحت محجا لكل مغامر وباحث عن الثروة، ولكل مسْبي من بلاد إفريقيا ومن موانئها.

كان شهر ماي قد أطلق العنان لأشعة شمس حامية، تميزه عن باقي الشهور الباردة. حتى من النهر لم يعد بثقل مجراه نظرا للحرارة التي تصهر برودته وبرودة المياه التي تشكل موارد له من أقاليم عدة من إيبيريا ووسطها. توقفت السفن أمام باراميدا. استراحة تائه في الوجود. هكذا فسرت حيرة العم المتقدة ذلك التوقف. هل سيتخلى عن ابن أخيه هنا ويقصد اتجاه المحيط وقبلته المغرب بطنجة أو أصيلا؟ هل سيحتضنه القراصنة أم إنهم سيسحقونه ويقدمونه كصيد ثمين؟ فيأخذوه أسيرا سيباع بالغالي والنفيس على أعتاب الدولة السعدية الرسمية؟ ستكون المهمة جهادا، وسيرتبط الجهاد بالاستشهاد في نهاية المطاف. أصبحت المهمة مقدسة إذا، وأصبح القرار جاهزا في قرارة نفسه.

سأل البحارة عن وضع النهر ومجراه. أوقات المد التي يصل معها الماء وأمواجه إلى ثلاثة أمتار وربما أكثر، أحوال الطقس وتحولاتها. اطمأنوا لكون سفنهم تستطيع اختراق الوادي الآن. وقد ساعد تباطؤ العبور على استمتاع مولاي الشيخ بالمناظر الخلابة التي تهبها ضفاف الوادي، والتي تقربه منها أكثر شروحات طاقم السفينة وإشاراته. كانت المروج كبيرة وشاسعة. وكانت أسراب الطيور المهاجرة أنواعا متعددة. كل مرة يلفت انتباهه جمال مشهدها، مثل طائر المدروان. وكان صوت صبح وحضوره مهد أمانه واطمئنانه. يهبه ذلك الشعور بالسعادة والبديل عن كل شيء. لقد استطاعت صبح أن تعلمه فلسفة حياة وعيش ناسبت شخصيته الشبابية التي تميل إلى متع الحياة. كما استطاعت أن تشكل غرامه، فكانت معلمته ومبتغاه في كل ما يأمله من النساء. ولم يقتصر دور المعلمة على هذا الجانب، وهو الشاعر الذي يميل إلى الصور الذهنية وإلى الخيال والتعبير بالجمال واللغة والسلوك. كان دستورهما فلسفة تصوف وحب إلهي امتزج مع الحب الوجودي الإنساني، ومع حب صبح، على الأقل خلال هذه المرحلة وهذه الرحلة. وخمريات ابن الفارض كان كل واحد يؤولها بدرجة مبتغاه، ومبتغى متعة هذه الرحلة النوتية، وهذه الاكتشافات الجديدة. مقصد استقراره يعطيه تشجيعا على ما هو فيه. سيلتحق بأمه، وسيدبر معها الأمر. كما أنه سيكون داخل بحبوحة بلاد الاندلس التي عمّر فيها الإسلام والمسلمون لأكثر من ثمانية قرون. وسيكون قريبا من مركز القرار السياسي الإسباني.

تعلم أن الحب عيش خلود اللحظة، والتمتع بما تهبه الحياة في حينها. منسجم مع ذاته ومع رغباتها. لم يُرد أن يجعل لقضية استرجاع المُلْك أكبر من حجمها. لم يكن مسؤولا عما وقع، ولا يعنيه جعل الحل فقط بالعودة والانتقام وإسقاط ملك عم أبيه أحمد المنصور. كم من مرة تخيل في لحظة هدوء مجالسة جميع أطراف أسرته المتناحرين، الميتين منهم والأحياء. كم حاور وحاول جعل حل سلمي ينهي الصراعات الدموية. لكنه يستيقظ فجأة من حلم يقظته الذي يعيده إلى رائحة بارود مشمومة في الرسائل السياسية والمكائد المرتبطة بها. القضية

أكبر حجما من شاعر آثر الحياة ورغب فيها، وهبه فيها القدر امرأة متعلمة هذّبت عبادته كما عشقه وغرامه. حتى من ذوقه الفني، كانت صبح مدرسته في الموسيقى والغناء وشتى فنون متاحة في التذوق الجمالي.

يحتار الأمير أمام هذا المخلوق الصغير الذي لا يملك من القوة إلا نعومة جسد، وقسمات جمال وكمال بدن. لكنه يملك من رجاحة العقل وبوابات النعيم ما به تَغَنّى الشعراء وآمله العشاق كبوابات لجنّات النعيم. ونعيمه في صبحه الذي يُمسي عليه فيجعل ليلَه بدرا يواسيه ويؤنسه ويمتعه.

لم تكن الرحلة بنفس المذاق بين العم وابن أخيه. كأنهما منبعَا ماء، أحدهما مالح، والآخر عذب زلال، أو لنقل إنه تمت تحليته. وما يملك العاشق أمام رقيب القبيلة إلا البقاء خارج لجامها وخيامها وعصبيتها، مُبتعدا عن مُغمَد خناجرها وسيوفها، حتى لا يوقظ نواصلها.

كانت قِبلتهم في الرسو هي أطريرة. تم منعهم من الدخول إلى مدينة إشبيلية، نظرا للعدد الذي حملته السفن الأربع مع الأمير. قبلها، رسوا ب (كوريا ديل ريو)، على الضفة الشمال من وادي الكبير. استقبله هناك الدون لويس برافو الذي كان يهمس لمرافقه بجانبه حين نزول الأمير من سفينته: يبدو أنها دولة عائمة فوق الماء، تتضمن الأسرة الملكية وحراسها وخدمها وخزائنها. لا أرض لهم يحكمون فوقها !

كانت نظرة العم صالح متأملة ابتسامة الدون، ومستنتجة درجات السخرية التي قد تحملها أو حمَلتها. كان العم متوترا منذ بداية الرحلة. هذه السنوات وكأنها عودة إلى نقطة الصفر واللابداية. لا مدَّ لمواجهة من اغتصبوا مُلْك أخيه محمد المتوكل. احتدم النقاش في لحظة خلال الرحلة البحرية بين العم والأمير:

. لو أمَرْتني يا مولاي، لجعلتُ الإبحار حتى مدينة طنجة. وسنُرغم ملك إسبانيا على خطتنا بدل خطّتِه هناك.

. لا تستعجل يا عمي. أنت أكثر مني حِلما على ما أظن. وأنت تعلم أن المهمة صعبة. لقد تقوى جيش أحمد المنصور ولا نستطيع نحن القيام بمواجهته بمفردنا.

...

. نتمنى أن تُعجب الأمير أرجاؤنا. هكذا بدأت عبارات الترحاب من طرف الدون.

كان الدون لويس برافو من طبقة النبلاء، حيث تسلق في المناصب والمهام والمسؤوليات. وكان هو من جهّز السفن الأربع (Galeires)، لنقل الأمير ومن معه إلى الوادي الكبير تجاه إقليم إشبيلية. كانت المهمة إذن رسمية من طرفه، وكانت المتابعة والمواكبة مسؤوليته عموما. لهذا كان الدون هو من وقف قبل غيره لاستقبال الأمير والاطمئنان على سلامة الأفراد والرحلة، وسلامة المهمة كذلك. وطبعا شرف الرحلة كان إكراميات كذلك أغدق عليه بها الأمير جزاء خدماته وحسن صنيعه. لكن حدس العم صالح كان مناقضا لهذا المناخ. رأى في الريح التي تسوق السفن وتهبُّ من كل اتجاه ما هو عكس إرادته وطموحه في خوض معارك الانتقام واسترجاع المُلك ونزعه من أحمد المنصور.

لكن الرحلة ما زالت مستمرة. هذه المرة جهة قرة العين والفؤاد، تلك الكأس البلورية التي تلمع بمحياها فتسقي الوجدان قبل الحواس. هي صبح ALBA، ذلك القبس من النور اللازوردي الذي ينبلج من العتمة هادئا ووديعا لكي يعلن بداية يوم جديد وحياة جديدة وأمل جديد كذلك. صبح التي استطاعت في انشغالات كلٍّ بتدابيره أو غفوة أو نومٍ، أن تُقبِل على الأمير وهو في تأمله خلال الرحلة البحرية. الأمير الذي أبهرته الطبيعة الخلابة والمتنوعة، وهذه الحركة الملاحية التي ينبض ولا ينضب خفقان الوادي الكبير منها. ما رآه بالبرتغال عبر مرافئه وموانئه أو في اختراق السفن لأمواج شواطئه، تَجسَّد له معاينة عن قرب عبر

مجرى الوادي، وعبر التحايا باللهجات الإيبيرية ولغاتها، بسفنها وأشرعتها وأعلامها التي تحمل لواءها ووجهتها ووظيفتها.

لكن الحالم الشاعر سحرته الآفاق الجديدة التي يتراقص ماء الوادي معها احتفالا بقدوم الضيف الجديد بين أحضانه. أهو شوق إلى الأم؟ أم هو فتيل وجود يعطيه حرارة حياة يرغب فيها أكثر. الشرعية الوحيدة التي يعترف بها في ارتباطه بهذا المكان هي تواجده فيه الآن. أما الدولة الحاضنة، فهي في مزيد مفارقة مع قلبه. ذلك أن مقامه كان كلما زاد، كلما تعرت حقيقة السياسة الساخرة من وظيفته. استرجاع عرشٍ ضاع من أبيه. ولمن سيرجع هذا العرش؟ لحُفنة هذا العدد المرافق له؟ وأكثرهم أتباع وخدم. من يذكره هناك ببلاد المغرب؟ خلال سنوات منفاه بالبرتغال، لم تصل سوى رسالة واحدة، لكنها كانت غير مُطَمئنة. الأمر أنها عرّت الواقع، ونزعت الستار عن سحابة الحلم الذي يحمله معه في ذهنه. أحلام بنى معها طموح العودة إلى المغرب. فلقد تقوى نظام أحمد المنصور، وأصبحت له علاقات في البلاد المنخفضة وبلاد الإنجليز، ومع العثمانيين، وحتى مع الإسبان.

أصبحت هناك توازنات يعمل بها الساسة في كل بلاد. كيف سيرجع عرشا ضاع من أبيه؟ وما بدا له مجرد حقد كبير تشعب وتغول واستفحل بشكل كبير، يتألّب حوله في حياته أو مع مماته. حقد تجلى مع أبيه أولا. كيف قتل، وكيف تم التمثيل بجثته، وكيف نهشت سيرته الغربان قبل الأنام، واتخذ الكل من الحبر سبيلا، لمزيد قدح واحتقار. وهو الذي كان فقيها وشاعرا. عُيّر باللون، وبأمه الإفريقية. وما يحمله الأمير هو من أبيه بشرة ولونا ودما. أين هو إسلام السلف الصالح: لا فرق بين عربي وعجمي، ولا بين أبيض وأسود إلا بالتقوى.

بقدر ما أبهجه منظر الطيور المهاجرة التي تؤثث فضاء الرحلة، بقدر ما جعل المفارقة في وجدانه. هو كذلك مهاجر. لكنه لا يتخذ الوجهة التي يريد. فقط ما أريد له لحدِّ الآن. مسير وليس بمخير. ليته كان من الطبيعة لكان الأمر عاديا وطبيعيا بلغة هذه الطبيعة. لكنه عن وعي وسياسة وتدبير وتسيير وتحكم. وكلها أفعال نغّصت عليه جمالية الرؤية ومتعة تأمل مناظرها الخلابة.

كانت شمس الصباح قد لبست فستانها الوهاج لكي تطل على هذا النهار الجديد، من جهة الضفة اليمنى. تراقصت ألوان أشجار ونباتات، نافضة عنها طلا اغتسلت به حيث أيقظها من نعيم تماسك خلاياها مع سكون الليل، أو مستسقية به بما تحتاجه تغذية وارتواء. وبدأت الطلعات الأولى لتحليقات الطيور. أما النوارس فقد آنست تدفئة أجسامها وإنعاش أجنحتها مع تمايل أشرعة السفن وتلحفها بنسيم الصباح المحافظ على برودته هذا اليوم.

وقد بزغ نور صبح بين أشعة الشمس الأولى. كان مشرقا كعادته، مبتسما ومتوردا داخل دثاره الذي يلف هيأته ووقفته.

. تعلم يا أميري، لقد عبروا بي هذا المجرى حين أرسلوني إليك. كانوا أربعة حراس تكلفوا بالتناوب على ضمان سلامة الرحلة. لم أنعم بجمال هذه المناظر خلالها. ما أجمل بلاد الأندلس يا مولاي.

. فعلا يا صبح. إنها بلاد جميلة وغنية. لو كان الإنسان بدرجة بهائها، ما كانت كل هذه النزاعات والحروب.

. سننعم يا مولاي بشعر وفكر غني هنا ببلاد الاندلس. مدينة إشبيلية غيورة على تاريخها. رغم كل ما قاساه الإنسان، فهي كامرأة حاولت دائما أن تحافظ على حسن مظهرها وطهارة وجدانها. تفتح قلبها لكل عاشق للحياة والحب والفن والفكر. حتى ملك إسبانيا لا يجد مكانا أكثر تحسيسا بملكه وحكمه من بلاد الأندلس

وإشبيلية وفضاءاتها. وكأن الوادي الكبير هذا هو الذي يزوّده بماء الحياة والنفوذ. لكنه الذهب وثروات العالم الجديد هناك وراء البحار. هنا أول ثرواته الجديدة.

. تعلمين يا صبح، أنتِ مدينتي الآن. بك أعيش هذا العالم. كل ذهب الدنيا سيذهب. كل قوة ستزول. وماذا سيتبقى بعد؟ هذه السعادة في القرب منكِ، ولو جاءت الموت لتزورني سأخبرها بهذه الحقيقة.

. نجاك الله يا مولاي من كل مكروه. حبك حبي وسعادتك سعادتي. أنا خادمتك المطيعة يا مولاي. أنا دائما بجانبك ما دمت راضيا عني.

. وكيف يكون الصبح مشرقا بدون صوتك يا صبح؟ اسقِني من رحيق الشعر، ما به أرتوي وأخلّد ألوان هذا الكون. أشعر بأنني أعرُج للسماء معك. لا يهمني كل هذا العالم:

وردة أنت أصيصها وتاجها في الأندلس منبتها وحضنها

تكون لك رحيقا مختوما إذا ما شربتَه ذاك خلدها وجنتها

. يا سلام يا صبح. دعيني ألثمك، أقبّلك، أختلجك. أنا فراشة لا تستقيم لها ألوان ولا موسيقى ربيع وخرير إلا بك.

. يا مولاي، للجبال عيون هناك. سيكون مرادنا حين رُسُوّنا بمرفإ أمان.

كوريا ديل ريو

ينبسط الوادي ويمتد ماء النهر أكثر على ضفاف هادئة من مد وجزر. يبدو أفق الطبيعة أكثر تساؤلا حول أسراره وتاريخه. سيكون على الأمير وهو يحط خطوه فوق برّه مستقبلا ممن تكفّل برحلته التي بدأها من بلاد البرتغال.

بدا الفراغ مستشعرا ركبتيه. احتاج إلى كتف مجاوره لكي يستند عليه. حينما استقام في وقفته الجديدة هذه، كانت ابتسامة جامدة مصوّبِة نظرها لعينيه. يحتاج لفهم الرسالة بالإشارة والنظر الآن. التفت لجانبيه، كان عمه صامتا ومنتظرا، وكان الآخرون على أهبة النزول من سفنهم لأجل استراحة من هذه الرحلة المائية. تجاذُب الماء والتراب، تلك رحلة الإنسان الوجودية. كانت العبارة الأخيرة خاطرة عبرت سماء ذهن صبح، كأنها سحابة توقع لزرقة السماء الصافية هذا اليوم، والمستعدّة لغروب جديد بعد أصيل راقَصَ بأشعته الشرقية كل النباتات المتمالية والمخلوقات المتحركة. كما أن أسماك النهر طلبها لكي توقع حضورها وتحيتها لهؤلاء الوالجين الجدد للنهر الكبير.

جل الأعين بدا عليها الاستغراب والاستيحاش. أجناس كثيرة راودت مجرى الوادي. لغات عديدة خربشت بموسيقى نطقها وآلات عزفها سمفونيته الطبيعية المحلية والبيئية. إنما هؤلاء، بدا عليهم الاندهاش، كأنهم أسرى مقتادون إلى مصير مجهول. لم يكن لباسهم يدل على ذلك. فقط ما كان من توجس أعينهم والخوف البادي

على ملامحهم وحركاتهم، وذلك الصمت الرهيب الذي هيمن على جلهم. صمتٌ كان طاقمُ الإبحار على متن السفن هو الذي يجعل الاختراق لوقعه. بحارة وجند إسبان، كانت أصواتهم تعلو وتتعالى مناداة وتبادلا لعبارات. كانت هي التي تدون انتماءها للماء، للبحر، للنهر، للوادي، الوادي الكبير.

ها هو "دون لويس برافو" في الاستقبال. قائد الرحلة الحقيقي الذي كلّفه البلاط الملكي بها. نجاحه فيها رسالة ترشحه لكي يكون قائد حملات كبرى في غزو مناطق من العالم أو خوض معارك باسم الكنيسة والملك المعظم. ويبدو أن مهمته لم تقتصر على مجرد إبحار السفن البِع. فقد يكون منتظرا تسلمها بعد انتهاء الرحلة، وكذا الرجوع بها. لكنه مسؤول كذلك على استقرار هذا العدد الجم للأميروحاشيته. ما تزال مشارات قائمة حول مصيرهم هنا ببلاد الأندلس. بين مرحّبٍ بقدومه، يرون فيهم الغنى الذي سيمطرهم بقطع نقوده وهباته، وآخرين توجسوا من كثرتهم ورأوا فيها تهديدا جديدا لمسيحيتهم وأندلسهم التي استردودها من الخلافات الإسلامي السابقة في الوجود هنا.

استشعر الأميران، مولاي الشيخ ومولاي ناصر، بأن الرحلة لم تنته بعد هنا بكوريا ديل ريو.

. مرحبا بكم يا مولاي الأمير في ضيافة الملك المعظم. أنتم تعلمون بأنكم تحظون بتقدير ومودة ملكنا المعظم فيلب الثاني. ستسمرون هنا في تلقي راتبكم وكل أنواع الدعم يا مولاي.

يبستم الأمير الشيخ لترحاب الدون برافو، وفي دواخله يكتم ضحكة خاصة، لطالما حبسها مع استغرابه من ذوق الإسبانيين في اللباس. رغم مرور هذه المدة ببلاد إيبيريا، ما يزال يرى أهمية اللباس الفضفاض في إراحة الجسم وحركاته. وقد كان السيد لويس برافو بسرواله الضيق الملتصق على ساقيه وركبتيه، وصدريته المتينة المليئة بالزخرفة والصدف والعقد المتشابكة، يثير دهشة الأمير. ولا تلك العباءة القصيرة التي تشبه البرنس،

وتغطي بالكاد خصريه وتبقى منفتحة على جانب من كتفه الأيمن ويده ومغمد سيفه وسلاحه. وتبقى القبعة العريضة والمستديرة حول رأسه في شكلها المتماوج تثير استغراب الخلائق الجدد، ومنهم الأمير مولاي الشيخ.

. مرحبا دون لويس برافو. نشكركم على كرمكم ومجهودكم في رعاية هذه الرحلة.

. العفو يا مولاي. ستكون لكم مدة زمنية هنا للاستراحة قبل مواصلة رحلتكم. ننتظر معكم الأوامر العليا طبعا

لم تبق هناك مسافة كبيرة إلى إشبيلية. سمع الأمير بمنارة الذهب هناك. وكله شوق لرؤيتها. ولعل حركة الملاحة عبر الوادي الكبير ساعدته على تفسير سرّها نسبيا، وأهمية مرفأ إشبيلية والمدينة أيضا. وقد مرت أمامه سفينة كبيرة آتية من أمريكا. كان على متنها خدم البلاط الملكي ومجموعة من الجنود إلى جانب البحارة. كانت بها ستة مدافع تعزز جنباتها في الدفاع عنها، وراية حربية كبيرة ترفرف بجانب علم إسبانيا، مستنفرة كل من اقترب منها. وقد ساد صمت رهيب وكبير كل المرافقين لرحلة الأمير، وقام الدون لويس بأداء التحية العسكرية المناسبة، والمرفوقة بإشارة الصليب. وبعد مرورها بدقائق، فسّر الدون طبيعة السفينة وحمولتها:

. هذه سفينة آتية من بلاد العالم الجديد. تحمل ثروة كبيرة. وقد وصلت بسلام. مخاطر القرصنة كثرت هذه السنين، وكم من الذهب والنفائس والرهائن والأسرى وقعوا في أيدي أعداء مملكتنا العظيمة. سيفرح الكل في إشبيليا الآن بوصولها، وستزداد قيمة منارة الذهب تسمية ومحتوى. وكما ترون، فدخول إشبيلية مستحيل الآن. سنسلك الآن طريق قلعة وادي أيرة تجاه كرمونة. ربما رحلتنا البحرية ستتوقف هنا يا مولاي، وتبدأ الرحلة البرية.

أطريرة

بدا على وجوه المستقبلين بعض الشوق إلى حديث ومعانقة. كان البعض يتوجس من البعض الآخر. جماعة الجنود المتفرقين هنا وهناك، أعين الطاقم المرافق للدون، بعض البحارة الذين عادوا من رحلة صيد أو مرسولية إبحار، كلها مشاهد شفع لها هذا الانخفاض الكبير والممتد لأراضي أطريرا. ورغم أن حرارة هذا اليوم كانت مرتفعة جدا بدليل الأشعة الشمسية التي راقصت الخلائق والنباتات وأشعلت الحناجر التي تسارعت للارتواء كلما استطاعت إلى ذلك سبيلا، رغم ذلك فإن الحاضرين في هذا الاستقبال تكاثر عددهم وكان حريصا على متابعة ما سيلي من أحداث.

من هؤلاء؟ يبدو على ملامحهم وزيهم أنهم من الموريين المسلمين. اعتاد المتتبعون للعابرين لمجرى الوادي التعرف على جنسيات عدة، بل منهم من هم من ذويهم وأصحاب ديانتهم السابقة. ذلك أن جل الساكنة الموجودة هنا قد تمسحت بعد أن كانت من المسلمين أو من اليهود في الانتماء والممارسة للشعائر. أما الاعتقاد فهو لعبة السياسة والهيمنة والاستغلال والنفوذ والجبروت. ولا يعلم ما في القلوب غير خالقها والقريب من وجدانها.

قليلون منهم من حافظ على ديانته الأصلية. خطر محاكم التفتيش ما يزال قائما بتهمة الخيانة والارتداد عن المسيحية. كانت المقصلة سياسية وكنسية أكثر منها آلة حتمية في إعدام وقطع الرؤوس. ربما قد تراجعت السياسة عن احتقانات وضغائن الكنيسة المغرضة، فتساهلت مع غير المسيحيين. ذلك أن العصر الذهبي الجديد للدولة الإسبانية في حاجة إلى الجميع من أجل استمرار قوته. من سيزرع أراضي القمح والقطن، ومن

سيهتم بالتجارة وسوق الذهب والمعاملات المالية... كلها وغيرها جعلت الواقعية الجديدة مع السياسة النفعية لدولة إسبانيا هنا بالعاصمة القشتالية الجديدة مدريد.

ويبتسم الأمير مولاي الشيخ لكل هذه التحاليل التي يسمعها. لم يعدم من خبراء ومحللين. حتى من تسمية العاصمة مدريد، فرح حينما سمع لها اشتقاقات من لغته العربية التي أتى من ثقافتها وتاريخها وصراعاتها المجتمعية. مدريد مأخوذة من المجرى، وهكذا تأويل. حتى من إشبيلية، كانت شخصيتها الإسلامية والعربية طاغية في التعريف بها. لمدة قرون وهي تتطور تحت راية الإسلام. الخلافات السياسية والدينية المغربية تناوبت على حكمها وتسييرها. الخيرالدا الشهيرة بصمة دالة على ذلك. لها توأمها ونظيرتها الكتبية بمراكش.

كان ملك إسبانيا يتردد على مدينة إشبيلية التي عرفت حركية اقتصادية وعسكرية كبيرة. فالعالم الجديد بإسبانيا الجديدة يزداد اتساعا وإيرادا لثروات فائقة. الخمُس الذي جعل على هذه الثروات أذهل خزائن الدولة. كان على الملك الاعتراف بفضل إشبيلية، والحضور إلى جانب الكنيسة المهيمنة من أجل تدبير المصالح والسياسات. لأجل كل هذا كان إحضار الأمير الإفريقي ضرورة تقلص من دوائر الانفلات. فبعد أن توحدت إيبيريا في ظل حكم فيليب الثاني، بات من الضروري إعادة النظر في تدبير الشؤون المشتركة بين البرتغال وقشتالة. على الأمير أن يكون قريبا من البلاط الإسباني، حتى يسهل احتواؤه وتوظيفه سياسيا وعسكريا. أما غير ذلك، فقد شهد توظيفا ثقافيا قبله مع من طلبوا اللجوء والتمسح من أمراء سابقين.

لم يعجب الأمير الإفريقي شعوره ووعيه بكونه وسيلة وأداة دبلوماسية من أجل كسب مواقع قوة. فقد تفاوضت إسبانيا مع الملك أحمد المنصور من أجل الحصول على تنازل عن العرائش. اعتُبِرت المدينة بوابة إفريقيا الرئيسية من طرفهم.

"ـ الأمير الإفريقي أداة في أيدينا. سنرى كيف سنوظفها هنا بإسبانيا. المرحلة لا تسمح له بحلم استعادة الحكم السعدي ببلاد المغرب. لكنه مفيد لنا في حربنا ضد العثمانيين وفي ضغطنا على السعديين. ولا ندري ما سيأتي. المهم أنه ضمانة ثمينة عندنا لقراراتنا المستقبلية".

هكذا كانت قرارات البلاط القشتالي. وكم منها استنتجها بالحدس الأمير مولاي الشيخ وكذا عمّه. العم مولاي ناصر الذي بدا أكثر قلقا لهذه المراوغات الجديدة والتأجيلات التي لا تخدم مستقبل قضيته ضد أحمد المنصور السعدي.

وها هي المحطة الأولى التي ستبين أن السياسة قرارات تتخذ من أعلى بما يخدم مصالح القشتاليين. هي أوطريرا التي سمع بها الأمير من قبل، وقرأ بعض مدونات كما اطلع على رسوم هندسية لها تحاكي معالمها. لكنه الآن وقد وطأت قدماه بلاد الأندلس، تأكد له بالملموس أن التواجد الإسلامي عمارة وبنيان، وأن الثمانية قرون لا يمكن محوها بجرة قلم. لم يزر إشبيلية بعد، وكم سمع عن تماثلها مع فاس ومراكش وسلا، هذه المدن التي تشكل مملكته الوهمية التي يتمنى يوما ما أن يتربع على عرشها، وإلا ، لماذا هو هنا في هذه الرحلة الجديدة.

لاحظ على محيا الناس هنا تلك البشاشة، وذلك الترحاب. لمس تعطشهم إلى السلام عليه ولمس يد وثيابه. أمير إفريقيا. لابد أنه ملك مستقبلي. ويوجد هنا بالأندلس؟ لابد أنه من طائفة الملوك المرابطين والموحدين، الذي شرّفوا الاستنصار والإنقاذ لبلاد الأندلس في ما مضى. لابد أنه يمتلك ثروة كبيرة، من المال ما يوازي منارة الذهب... بقدر الاغتباط، بقدر الغرور. على الأقل هي لحظة مقتطعة من تعب الرحلة والخوف.

وفي لحظة من التفاعل، بدت الأصوات مشكلة للقاء استثنائي، وكأنه سوق أسبوعي مألوف وصاخب. اخترق الجمع تاجر مشهور هنا بأطريرة. قدم نفسه وصِفته وتجارته التي يهتم بها. طال الحوار مع الأمير ومع عمه السيد ناصر. كان متأملا عن بُعد. ولما لاحظ وتأكد من أنه أمير محظي برعاية هسبانية، غامر بالتواصل

معه وعرض تجارته. كان اسمه هييرو. قصته لا تخلو من طرافة ومن رعب في آن. حينما اضطر اليهود والمسلمون معهم إلى التنصر والدخول في الديانة المسيحية، كان هييرو ممن اتصفوا بواقعية من أجل الحفاظ على مصالحه. هو مُرابٍ، وصائغ ذهب وتاجر في مجوهراته. اغتنى بفضل وفرة الذهب والفضة خلال هذه العقود من تواجده ببلاد أطريرة وإشبيلية كذلك. كان الذهب يتدفق على الوادي الكبير مع السفن، وكان التجار والمحاربون والمستكشفون، يحملون من حصتهم ما يدفعهم لتبادلها في معاملاتهم التجارية وفي قضاء حوائجهم المتنوعة. اغتنى بالمادة الخام التي يشتريها ويعيد صياغتها جواهر ثم يبيعها بأثمنة مربحة جدا.

رأى هييرو في هذا الأمير الذي ترافقه حاشية كبيرة كافية لإعمار مدينة وتسييرها، فرصته التي سيساومه فيها ويبيع له من المجوهرات ما يزيده في الأرباح. والفرص لا تعوض عند تاجر ماهر.

. مولاي الأمير، حفظكم الله برعايته. مرحبا بك في بلاد الأندلس وأطريرة. ولن يرتاح لي بال حتى أرضيك بما يبهجك.

يبتسم الأمير الإفريقي لهييرو وللهجته الدالة على أصوله اليهودية. يبتسم أكثر للفظة يبهجك، ويتساءل في دواخله: تُرى ماذا يمتلكه هذا التاجر ويستطيع أن يبهجني به؟ ينظر إلى عمه الواقف بجانبه والذي يتدخل لكي يستبين الأمر:

. وما الذي تمتلكه كمادة تدخل البهجة؟

. مولاي، هذه مجوهرات وحلي إذا أُهديت لمن هي أعز عندك، زادتك سعادة وبهجة. هل كلامي على صواب؟ نعم أم لا .

تنتشر ضحكات مستحسنة لبشاشة التاجر ولباقته. ينظر الأمير مولاي الشيخ لبعض هذه المجوهرات فيختار منعها قطعتين فقط. يساوم في الثمن ويتفقان على ما يرضي الطرفين. لاحت بشائر أمل عند اليهودي، وأراد أن يساوم أكثر في بضاعة أخرى، ربما هي عند الأمير وليست عنده. فبعدما تعرف على من هو الأمير وسبب مجيئه إلى بلاد الأندلس، علم أن هناك بعض اليهود في ذمة الأمير وخدمته. أراد شراءهم وفدية بعضهم ببعض المال أو المجوهرات. استغرب الحضور لهذه الفطنة الزائدة، والسرعة في تحقيق صفقات لا يجرؤ أحد على القيام بها. استسمح الأمير واعتذر، واعتبر أن الظرف غير مناسب لمناقشة ما يطلبه هييرو:

. نحن الآن ضيوف عندكم هنا بأطريرة. عندما نستقر يمكننا مناقشة ما تريد. كنا في بلاد البرتغال، وعندما أصبحت هذه البلاد تابعة لحكم الملك فيليب الثاني، ها نحن الآن في ضيافة الملك فيليب الثاني. حاول أن تزورنا حيث سيكون مقامنا مستقبلا. أكيد سيكون عندك علم بكل شيء.

. إن شاء الله أيها الأمير. لا تنس، نحن أبناء سيدنا إبراهيم. وأهلي يوجدون ببلدكم المغرب.

. هه. يوم نذهب للمغرب، مرحبا بك لتلتقي أهلك هناك.

. يبدو يا عمي أننا سنبيت هنا الليلة بأطريرة. فرصة للاستراحة من الرحلة البحرية. وغد له مدبر حكيم.

. نعم يا مولاي. أرى أن طريقنا محموم بالمخاطر والقرارات المفاجئة. لا أرتاح لقرار منعنا من دخول إشبيلية. لو كان الأمر بيدي لجعلتُ رحلتنا إلى الجنوب من أجل استعادة ملكك يا مولاي. رغم أننا نحتاج إلى استعداد أكبر.

وبينما هما في حوارهما الذي انفردا به بعد أن ابتعد هييرو بعروضه التجارية، جاء صوت دون لويس برافو مؤكدا التخمينات والتوجسات التي راودت العم مولاي ناصر:

. مولاي الأمير، لقد جاء القرار بجعلكم تستقرون بكرمونة بدل إشبيلية. الأجواء بإشبيلية غير مساعدة. هناك عدد كبير من المورسكيين الذين استنصروا قد بدؤوا في الحديث عن التواصل معكم ومبايعتكم كأمير. ربما يرون فيكم مخلصا لهم من وضع لا يرتاحون له، خصوصا مع تشدد الكنيسة ومراقبتها ومحاسبتها لكل من رأوا فيه ضعف تمسك بالعقيدة المسيحية.

. لو سمحت لي سيدي الدون لويس. هل يمكنني أن أقترح عليكم أمرا ترفعونه إلى أسرة الحكم الهسباني؟

. تفضل سيدي ناصر !

. طيب، ما دام استقرارنا مؤقتا هنا وهناك، أرى أن تسمحوا لي بالتوجه جنوبا مع جزء من الحاشية والرجال، حتى أستقصي التخوم وإمكانيات مواجهة حكم أحمد المنصور ببلاد المغرب.

كان ضغط الرحلة وعدد المنخرطين فيها قد أثار قلقا لدى السلطات العليا والكنيسة الكاثوليكية. اقترح الدون لويس أن يمهله السيد ناصر مدة لكي يرد عليه. هكذا بقي العم مولاي ناصر مع جزء من الحاشية بأطريرة، وصُرفت لهم ميزانية، في انتظار القرار الذي سيخبره به الدون لويس.

وجد الأمير مولاي الشيخ نفسه لأول مرة في مواجهة قرار سيجعله بعيدا عن عمه الذي سانده ورعاه وحماه. سيضطر للغد لكي يتنقل إلى بلاد جديدة هي قرمونة، أو كرمونة حيث سيلتقي أمه هناك. وسيرافقه عدد أقل من الأول الذي بدأ معه الرحلة البحرية انطلاقا من بلاد البرتغال. لكنه رغم نقصانه عن الأول إلا أنه بدا رقما مزعجا ومخيفا لساكنة كرمونة والساهرين على تسيير شؤونها الدينية والاجتماعية والسياسية. في نهاية المطاف، كانت قرارات الملك فيليب الثاني، الذي لا تغيب الشمس عن مملكته الممتدة في أرجاء المعمور، هي الملزمة للجميع، وعلى الجميع طاعته فيها.

كرمونة *Carmona*

هذه المدينة التي انضمت إلى تاج قشتالة منذ سنة 1247، لها تاريخ عريق منذ الرومان والقوطيين، وتمتلك قصورا وأسوار وبوابات موجهة لكبريات المدن مثل إشبيلية وقرطبة بالأساس. لقد اتخذ موكب الأمير مولاي الشيخ طريق الشمال الشرقي قادما من أطريرة حتى كرمونة. يحوم حول إشبيلية دون إذن بالدخول إليها. جاء القرار مفاجئا لكنه كان سياسيا وأمنيا أكثر. كل هذا ساعد الأمير على التحليل بعقله وجعل منطق للأمور يفسر وضعه هنا بإسبانيا بدل البرتغال. لم يعد للأسرة الحاكمة بالبرتغال نفوذ ولا حكم. وما دام الحاكم هو الملك الإسباني فإن رحلته في المنفى ستكون بتوجيهات فيليب الثاني. ما عرفه عنه أنه شديد الحرص على اتخاذ قراراته بنفسه، كثير الحذر. وأكثرها يصدر بكلمة واحدة. إذا نطق بها تبعتها سياسات وحروب وأحداث ومتغيرات مع مجرى التاريخ. تكفي كلمة (لا)، ردا على تساؤل يأتي بعد تحليل تقوم به حاشيته، لكي يقول لا لتواجد الأمير بإشبيلية.

في نهاية المطاف يعتبر انتقال الأمير الإفريقي من بلاد البرتغال إلى بلاد هسبانيا، مرحلة جديدة خاضعة للسياسة العامة لفيليب الثاني، وتوجهاته العسكرية وصراعاته التي يخوضها في أماكن مختلفة من العالم، سواء مع العثمانيين أو مع فرنسا أو انجلترا، أو هذا المد الجديد للبروتستانية شمال أوربا وبلاد الفلاندرز.

احتلت حاشية الأمير مولاي الشيخ عشرين منزلا بمدينة كرمونة. فاق عدد مرافقيه المائتين وستة عشر فردا. الأمر الذي أثار تخوف واحتجاج ساكنة كرمونة من المسيحيين. هناك من اعتبر الأمر إعادة اكتساح المسلمين لبلاد الأندلس. وهو الأمر الذي كافحوا لقرون عديدة من أجل الحد منه والقضاء عليه. حتى الكنيسة والسلطات معها خافت من احتكاك حاشية الأمير بالموريسكيين في كرمونا وما جاورها من قرى.

لم يشفع للأمير لكي يصبر على هذه الضغوطات الجديدة والحراسة المشددة على حياته اليومية بكرمونة سوى رفقة صبح. زاد اهتمامه بالشعر والأدب والثقافة التي ازدهرت ببلاد إسبانيا. صقل اللغة الهسبانية المتألقة، وانخرط في قراءات وحضور أنشطة سمحت بها ظروف التواصل هناك. لكن انطفاء شمعة أنارت لياليه المعتمة خلال هذه السنوات، جعله يدخل في حزن شديد. ذات صباح، وبينما هي ساجدة ومحتضنة لتمثال مريم العذراء في كنيسة سانتا ماريا، لبّت نداء حبها للخالق الذي عبدته بروح متصوفة ومنفتحة على باقي المومنين من الديانات الأخرى. وما حبها للأمير سوى برهان على ذلك.

كانت الأميرة بياتريس أم مولاي الشيخ كذلك حزينة وقلقة. لم تجد عن صبح بديلا مناسبا. وفاتُها المفاجئة خلقت فراغا في سريرتها التي لم تطمئن إلا لما حققته صبح من تحول ورُقِي في شخصية ابنها الأمير. دخل في مرحلة حزن شديد، وأثّر موتها على نفسيته. لكنه رأى في ما يرى النائم رؤيا تمثلت فيها صبح أمامه كملاك مبشر. دعته لكي يعيش حياته، ولا يبخل على نفسه من التزود بالحب أينما وجده، سواء في المرأة أو في الفكر والشعر والحياة عموما. (العهد بيننا خالد يا مولاي الشيخ. ثروتنا في الحياة حب ومتعة وفكر وشعر جميل. لا تنساني بدعائك يا مولاي !).

هكذا تحوّل الأمير إلى محب للعيش وارتداء اللباس الباذخ، والحفلات وبناء العلاقات الراقية، والحضور الرسمي كأمير في كل ذلك. وهو بروتوكول جعله يحافظ على هيبته وعلى تصور الجميع له كملك مستقبلي.

كل يوم، يجد نفسه محاورا حبيبته صبح. ما قرأه معها، وما غناه وراقصه وسمعه من موسيقى روحية، ثروة شكلت وعيه وأغنت وجدانه. رغم لون بشرته وملامحه المغايرة، كانت أناقته ومكانته التي أعطاها له الملك الحاكم وحاشيته، كافيين لكي يحترمه الجميع، ويود حضوره في مناسباته واحتفالاته. على العموم هي سياسة الملك التي يجب على الكل الالتزام بها. يوما ما، ربما يعود إلى بلاده التي أتى منها، ربما يصبح ملكا له سلطة ونفوذ وثروة، لكن الأهم، أن يكون له ولاء لولي نعمته الذي احتضنه هنا تحت رعايةِ لاكورونا، المَلَكية الهسبانية.

قاوم كل ذلك الحزن الذي سببته وفاة من يحب بالانخراط في الحياة الجديدة كأمير. كان ما يتوفر عليه الأمير من أموال قد بدأ يتراجع. مهمة عمه مولاي ناصر التي انتهت بموته بشمال المغرب، والسنون التي قضاها، والحاشية وأنواع المكوس التي أداها، إلى جانب العطايا، كلها قلصت مما يملك. لابد له من موارد جديدة. تمثل بعضها في هبات الملك الإسباني وما خصّصه له من نفقات شهرية ودورية. هكذا إذن، فالثروة التي حملها من المغرب لم تعد كافية لإدارة مشروع دولة وحرب وتاريخ جديد. لم يتم استثمارها لكي تعطي أرباحا وثروات جديدين.

كانت الأم بياتريس محتضنة لهذه الظروف ومدعمة لابنها معها. وكانت لها تواصلات وعلاقات مع أطراف عدة بإشبيلية ومدريد. هي المتحكمة في تدبير ثروة الأمير وتدبير مستقبله بإسبانيا. وما ثروته الكبرى سوى رمزية مكانته ومنصبه المفترض. وهي المفاوضة على ضرورة دعم ابنها والوفاء بالتعهدات التي أعطيت له. لكن وساوسها كبرت وأصبحت وعيا وتحليلا سياسيا يفرض عليها التدبير المحكم لما يأتي من خطوات. ستلجأ لكاهن كنيسة سانتا ماريا. ستعترف وتبوح. ستتطهر هناك في بوح تشريحي يفكك ويجعل الأسرار جواهر عقد جديد حول عنقها. سيكون المتحكم في طوقه رجال الكنيسة وتوجيهاتهم. وأين الأمير ابنها من كل هذا؟ بين

مشروعه وواقع حال الطبقة الحاكمة اليوم؟ أصبحت معادلات التغيير مؤجلة لمشروع استرجاع الأمير لمملكته المغتصبة ببلاد المغرب.

يُطمئن الكاهن الأم بياتريس، وهو نفس ما تسمعه من حاكم كرمونة، بأن الرعاية الملكية قائمة لابنها ولمشروع استعادته لملكه. تمتلك إسبانيا ذهب العالم وفضته، وكأنه خير منسكب من السماء لا ينضب، تستطيع به تدبير جيوش العالم وتغييره بما يلائم إرادة الملك فيليب الثاني.

كان على الأمير أن يستغرب، وكان عليه أن يفهم حقيقة هذا العالم الجديد الذي تأتي منه هذه الثروات الضخمة من الذهب والفضة. لكنه يشعر بتقييد حرية فكره وسلوكه وفهمه كذلك. عليه أن يكتفي بما يخدم وضعيته في كل ذلك. استغرقت مدةُ أربع سنوات مرحلةَ حياة جديدة إذا. بنى فيها علاقات متميزة مع شخصيات ثقافية وفنية وأدبية.

...

كل التقارير التي رُفِعت للملك فيليب الثاني أثارت التخوفات وحَرَجَ مناقضة المصالح العليا للدولة الهسبانية والكنيسة الكاثوليكية. لقد بدأت فيه الكنيسة تفكر بجدية في مصير المورسكيين الذين بقوا ببلاد الأندلس، ورغم دخولهم في المسيحية إلا أن صدق إيمانهم بقي موضع شكوك عند الرهبان والقساوسة. لذلك أصبح القرار مرتقبا في طرد اليهود والمسلمين من بلاد الأندلس إجلاء لهم جميعا. ما تزال ثورة البشارات لم تخمد جمراتها عند جميع الأطراف. وتاريخ 1568 ما يزال قريب العهد، حيث عرف انتفاضة أهل الأندلس.

كان هناك صراع سياسي قائم بين اللائكيين ورجال الدين، تضارب وتعارض في المواقف والمصالح. وحيث يرى الفريق الأول بقاء المورسكيين كضرورة اقتصادية، رأى فيهم الفريق الثاني تهديدا للمسيحية، لذا يجب طردهم أو قتلهم حتى. سبق أن تم التمييز للمورسكيين بقبعات خاصة وبأماكن سكن معزولة. تم منع التكلم باللغة العربية وتم منع التجمع في الأعياد والمناسبات، وشتى قيود نالت من كرامة اليهود والمسلمين...

أثار كل هذا وجدان الأمير الإفريقي في مرويات من تقربوا إليه. كانت زيارة بعض المورسكيين لبيت الأمير. الأمر الذي أقلق الملك الإسباني، فتمت معالجة المسألة بسرعة كبيرة، حيث نقل إلى ماردة التي هي بعيدة نسبيا. وهناك لفت انتباهه وجود ميغيل دي سيرفانتس الذي كان في مهمة بالبلدة.

في صباح باكر من سنة 1593 ، أراد الأمير تحقيق حلم رافق حبيبته صبح الخالدة في السماء. قرر الذهاب في رحلة استكشافية لدير ومزار مسيحي كانت تتمنى صبح زيارته والحج إليه خلال حياتها. إنها كنيسة سيدة الرأس، حيث تبجل مريم العذراء شفيعة الأرواح المسيحية[11]. شارك في احتفالية عيد القديسة عذراء لاكابيسا بأندوخار. هاله ما رأى من شغف عند الزوار، ومن طقوس تدل على حب كبير لمريم العذراء. ذرف دموعا، وحده كان يعلم سرَّها. وكأن صبح هي التي تذرفها، ربما فرحا للزيارة، ربما بكاء على فقد نعمة الحياة، وعلى فُقده هو لجوهرة قلبه التي أحبها وعاش معها أحلى ما يمكن للمرء أن ينعم به خلال حياته.

هو الحب إذن. هذا الداء والدواء. هذه النار والماء. هذه الحرارة والنسيم العليل. هذا العطش والارتواء. هو الحب الذي يصهر المتناقضات. وكم صهر مع حبيبته منها خلال طقوس حبهما وشعرها وسهرهما. كم صهرا من أفكار بدت صلبة، فجعلاها مصاغة كجواهر فريدة تزين روحهما وقلبيهما. كانت بداية كل ذلك مع خمريات ابن الفارض. هذا النادر الذي لا يحضر إلا مع قلوب المحبين. وكانا هما من أسرة المحبين المخلصين النادرين في هذا العالم.

سيتابع الزيارة، ويرافق الموكب، ويردد معه ابتهالاته، ويحضر طقوس تطهيره وبكائه وخلاصه. سينوب عن حبيبته وكأنها هي التي تقوم بهذا الحج وهذه الطهارة. أصبحت المسيحية مثل دينه الإسلام، عالما يحافظ به على سموه وتوازنه، ويعوّض به فُقده. وكم فقد في حياته ولم يعوّضه. وكم تأثر في لحظة خاصة وهو في ثمالة مرجوة بتعبير مرافقيه الذين جعلوا من السخرية دواء للحال: أنت يا أميري في قصتك مثل سيدنا آدم.

[11] La basilique et sanctuaire royal de la très sainte vierge de la tète .

. ماذا؟ ألا يكفيني ما وُصفتُ به حتى الآن. يوسف، ومحمد، عليهما السلام.

. مولاي. ألا ترى بأنك خرجتَ من جنة، وتريد العودة إليها؟ أنت الأمير وملك الغد. وها أنت في تحضير الرجوع إلى عرشك وإمارتك ومُلكك.

. صحيح. لكني لم أعد أشعر بارتياح لكل هذا الذي ينتظرني وأنتظره. أصبحت أنتظر السراب بدل أفق واقع حي وحقيقي مأمول. لم يعد لي من العمر ما يكفي، ولا من الحاشية ما يحقق معي مشروعي. اللهم إذا كان المغاربة هناك هم من سيأتون ويطلبون عودتي. وبحسب علمي الآن، فإن أمور أحمد المنصور تقوّت أكثر. بل إنه أصبح بمشروع إمبراطور جديد، يريد غزو بلاد إفريقيا والسودان لأجل الذهب. يناصره الإنجليز والعثمانيون في كل ما يقوم به. لا بد لي من قوة أكبر لمواجهة مثل هذا المتضخم سلطة وجبروتا.

لقد طلب مولاي الشيخ تعلم أصول الدين من أجل اعتناق المسيحية. وهي فكرة أصبحت تراوده بحدة. مصيره وقدره داخل القرارات السياسية والدينية هنا بهسبانيا وليس خارجها. تمت تلبية طلبه حيث تعلم في جيان، وتم نقل موكبه إلى قصر الإسكوريال بمدريد والذي بناه ملك إسبانيا حديثا، بهدف الترويج وجعل طقس تعميده مناسبة ودرسا أخلاقيا. كانت الكنيسة تعلم قيمة هذا الحدث. لقد سبق لأسماء عربية ومسلمة أن اعتنقت الديانة المسيحية، لكن ما أقدم عليه الأمير المغربي اعتُبِر ذا قيمة كبيرة في السياسة العامة للملك وللكنيسة. وكأن عرش الإسلام يهتز بتخلي قادته وأمرائه عن اعتناقه. رسالة ستوجه للجميع، وسيتم بها استفزاز كل الأطراف المعادية للكاثوليكية. قوّى الأسقف الرسمي في الإسكوريال خيار تنصير الأمير. راق الملك ما سمعه: (تصوّر مولاي الملك أن هذا الأمير سيسترجع مُلكه. ماذا لو أصبحت بلاد المغرب مسيحية؟ إنه أكبر انتصار لنا في شمال إفريقيا).

في يوم ثلاثة نونبر من سنة 1593، تم تعميد الأمير مولاي الشيخ الذي سيصبح حاملا للقب دون فيلبي دي أفريكا، ولقب الأمير الأسود في أوساط العاصمة مدريد. حضر النبلاء الإسبان كشهود، واستقبل دون فيليبي مياه التعميد من يدي دون غارثيا دي لويسا، كاردينال ومطران طليطلة. وكان العراب هو الملك فيليب الثاني نفسه الذي منحه الاسم بحضور الأميرة إيزابيل كلارا يوجينيا.

احتضن الحدث قصر الإسكوريال، الذي يمثل مفخرة الملكية الإسبانية. يتضمن المبنى القصر والدير والكنيسة. وقد استوحي بناؤه من هيكل سليمان، ويعتبر من أكبر الصروح الملكية في أوربا. ونظرا لأن دير الإسكوريال كان صغيرا ولم يتسع لكل خدم مولاي الشيخ، فقد وقع الاختيار على بلدة مجاورة لمركز العاصمة مدريد، هي منطقة فالديميريو، لينزل بها. والتي أصبح أحد شوارعها يحمل اسمه في ما بعد.

ورغم كل هذا الخشوع وهذا الامتداد للحب الذي تحوّل إلى عقيدة جديدة، كان البعض يرى ويُلمّح لكون الأمير اعتنق المسيحية بسبب خرقه الالتزام المرتبط بوضعيته في المنفى. جعلوا تمسُّحه غير مرتبط بالإيمان مباشرة.

لكن هذا الانتقال الجديد من دين إلى آخر جعله كذلك ينال أوسمة كبيرة، أهمها: وسام سانتياغو، ووسام بيدمار سنة 1596، ووسام ألبانشيت في أبرشية جيان. كما جعله يشارك في الحملة العسكرية في فلاندرز، والتي كانت ضد تمرد هذه الأقاليم على الملكية الإسبانية ومركزها بمدريد.

قبل تلك السنة، في 1595، تلقى نبأ وفاة عمه مقتولا على يد الأمير المأمون، حاكم مدينة فاس وابن الملك أحمد المنصور. كان استقباله لوفاة عمه مولاي ناصر والجارية نور معه، الأثر الكبير والخطير في آن. آخر ورقة كان يثق بمصداقيتها في ما هو مقبِل عليه من المطالبة بالعرش في بلاده المغرب. لكن العم الذي لم

يرتح له بال، ولم يرض بتقييد الحكم الإسباني لتحركاته وقراراته، حيث كان على تواصل مع المورسكيين، ارتأى الذهاب إلى مليلية، ومن هناك مواجهة حكم أحمد المنصور.

كان الفقيه أبو جليل الغيثي الذي تحول إلى صفة مستشار بدل فقيه أو مفتٍ، قد آزره وذكّره بعام الحزن عند الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وبقصة سيدنا يوسف عليه السلام. كان عليه أن ينظر بعين الموافقة على ما يسمع، وبذهن الاستيعاب وتحقق الأثر في شخصيته ونفسيته وسلوكه. لكنه كان مستغربا في دواخله لكل هذا التطابق المرجو بينه وبين شخصيات الرسل والأنبياء، وهو الأمير التائه في هذه البلاد.

يسأل نفسه: هل عليه أن يؤمن بقدريات ومعجزات تتحقق معه في سيرة حياته ومنفاه؟ كيف سيواجه أحداث التاريخ وصراعاته الكبرى بين الدول والجيوش والديانات؟ أسئلة لم تزده إلا حفرا لهوة فراغ، وشعورا بذهاب السند الذي يعطيه الشرعية أمام أعمامه الذين استولوا على الحكم في بلاد المغرب عوضه. ذلك السند الذي تمثل في تواجد عمه مولاي ناصر بجانبه. لكن العم قد مات الآن. لقد كان دخوله في الدين المسيحي إيذانا بجعل أمانة استرجاع الحكم السعدي والتتويج بعرشه لعمه ناصر. شعور بالذنب مع موته ! ربما هي واقعية هذا وذاك. كل واحد منهما برَّر اختياره ومناسبتَه.

كان للأمير دون فيلبي أن يفخر بديانته الجديدة، وانتمائه إلى دولة كبير في عهده. فقد اجتمعت العناصر والشروط، وكان تداخلها مؤثرا ومُوَجِّها في وقوع نهضة وتطور كبيرين داخل الساحة الفنية والفكرية والأدبية الإسبانية على الخصوص. كانت أسرة الثقافة والفن تتحرك داخل أرجاء الإمبراطورية المتسعة والمتنوعة في تشكيلها ولغات تعبيرها وتأثيرها. وكان الأمير دون فيلبي واحدا من هؤلاء المعجبين والمتأثرين.

هو في حضن دولة غنية تمتلك أكبر ثروات ومصادر الذهب والفضة. ما يزال له نفوذ الأمراء ومشروعهم وحلمهم في السلطة والنفوذ. ما تزال له حاشية ومستشارون. أصبح له مستشار يهودي مخلص اسمه ناتان بنترزني. وأصبح يسكن في شارع بزاوية تتقاسم اسمين هما هويرتاس وبّرانسيبّي: **l'angle des rues Huertas et Principe**.

كان جاره في هذه الإقامة هو ميغيل دي سيرفانتيس. وقد أصبحت له رفقة وصداقة مع أسماء لامعة في مجال الأدب والفن والمسرح. فإلى جانب سيرفانتيس[12]، هناك لوبّي دي فيغا. سيعمل الإثنان على الاستفادة من سيرته ومجاورته ورفقه. كما أن الطبقة الفنية والأدبية ستستمر في التفاعل مع سيرته تلك. هكذا سينتقل الاشتغال عند كالدرون دي لبركا **calderon de la barca**، ***في مسرحية بعنوان: أمير فاس*** **El gran Principe de Fez**.

---

[12] ـ ميغيل دي ثربانتس سابيدرا، 1616/1547ا، جندي وكاتب مسرحي وروائي إسباني.
لوبي دي فيغا: 1635/1562م. شاعر وكاتب مسرحي في العصر الذهبي الإسباني.
كالدرون دي لابركا، 1681/1600م. كاتب مسرحي وشاعر إسباني.

يجلس الأمير داخل قصره في خلوة مختارة. يحتاج لمراجعة ذاته وأحداثه. يعلم أن حياته تبدلت بالتمام الظاهر للعيان. خطوة بدت صعبة عند الحاشية، ومدهشة عند أمه بياتريس. لكنه أقدم عليها. يسائل نفسه حول دينه القديم، وهل خلا وجدانه من عناصر إيمانه وعقيدته. لا يستطيع عقله محو ما سبق، ولا نقض القناعات التي تمت. إنما شرط الاستمرار جعل العقيدة القديمةَ فلسفة مندمجة مع وضعه ومصالحه. هذا القصر الصغير المهدى له، وهذه العناية والمكانة التي أصبح عليها، والأوسمة التي نالها، ولا الكفاءات المالية التعويضية المرفوقة معها، هي وعناصر أخرى جعلت الملكية الإسبانية مفتخرة بما حققته، كما جعلت الكنيسة مصممة بعزيمة أكبر على محو آثار كل عقيدة إسلامية.

لقد رفعه الدخول إلى المسيحية درجات عالية في المجتمع الإسباني. أصبح الأمير الإفريقي يحضر المحافل الرسمية في السنوات التي تلت، مثل دخول الملك فيليب الثالث مدريد سنة 1598. كان فيليب الثاني قد مات بسبب مرض غريب. تكتمت الحاشية عن ذكر تفاصيله. جعلوه باسم مرض الملوك. وكأن الملوك لهم مرضهم الخاص وموتهم الخاص دون عامة الخلق. حضر كذلك حفل زفاف ولي العهد والأميرة إيزابيل يوجينيا في بلنسية، سنة 1599، وسنة 1608، حينما أدى فليلب الرابع القسم كولي للعهد في لوس خيرونيموس. كانت تُصْرف على إقامته أموال كثيرة بالقصر الجديد، وتحجز له مقصورة بفناء عرض المسرحيات في أوج العصر الذهبي الإسباني، لكي يحضر لأهم الأعمال الكوميدية لكبار المسرحيين مثل صديقه لوبّي دي فيغا.

كان الأمير دون فيليبيي يتجول في شوارع المدينة بأناقة، ويقيم استقبالات كبيرة في مقر إقامته. كل هذا أثار إعجاب جيرانه، حتى إن الشارع أصبح يحمل اسمه في ما بعد. أحسن اللغة الإسبانية وأصبح يقول الشعر

ويرافق الشعراء. شارك في حفلات الرقص الخاصة التي كانت تقام في القصر في تلك السنوات الأخيرة من القرن. كما شارك في رحلات القنص. كان مواطنا إسبانيا يحظى برضى الأسرة الحاكمة. وقد شارك في الحملة العسكرية مع الجيش الملكي في فلاندرز. أثارت إعجابه عائلة هبسبورغ هذه. كيف أصبحت حاكمة ومسيرة لأقاليم عديدة بالبلاد الأوربية. وكيف أصبحت مملكتهم إمبراطورية كبيرة وشاسعة تضم قارات متباعدة. وبفضل الأوسمة، أصبح للأمير دخل سنوي يقدر باثني عشر ألف دوكادو.

كل هذه النعم والشروط الجديدة للعيش جعلته يسائل نفسه محاسبا لها: هل خنت عمي مولاي ناصر في اختياري؟ هل القدر كان أكبر مني؟ لا يجد جوابا، مثلما لا يلوم عمه في اختياره. لم يصبح مولاي الشيخ معنيا بقضية العرش السعدي بعد تنصره. أصبح مولاي ناصر حامل اللواء والقضية بعده، لكنه مات الآن مقتولا على يد من سلبوا أباه ملكه وسلطانه. عسى أن يحسب القدر هؤلاء الذين قتلوا عمه مولاي ناصر. بحسب ما وصله من أخبار، كان هذا الحاكم على مدينة فاس هو الابن المقرب لأبيه أحمد المنصور. إنه الشيخ المامون، لكنه المشهور بفسقه وعربدته وتقريبه للغلمان، والجور في معاملة الرعية. فكيف سيكون حسابه يوم الحساب؟ حتى احتمال حساب معركة حربية الآن، أصبح قرارا بيد الملك الإسباني، هو الذي يمكنه اتخاذه.

في تقاطع زنقة هويرتاس وزنقة الأمير دون فيليبي، كان مولاي الشيخ إذن أو الأمير دون فيليبي، يعيش بجوار الكتاب والشعراء الكبار مثل سرفانتيس ولوبّي دي فيغا. وكان المنزل جميلا وفسيحا جدا. ورغم تحول البناية إلى تسمية أخرى في ما بعد، إلى قصر سانطونيا، فإن الشارع ما يزال يخلّد لإقامته هناك. لقد توزعت شخصية دون فيلبي بين مشارب متعددة ومتنوعة وساحرة. ورغم ظروف المنفى الذي لم يعد بمنفى . ربما هو اغتراب داخلي في وجدانه فقط الآن في تلك اللحظة . فإن صورته ازدادت أهمية كأمير وابن ملك، ومتنازع حول عرش الحكم ببلاد المغرب، وحليف للدولة البرتغالية في معركة وادي المخازن، ومن خلال ذلك حليف للدولة الإسبانية التي رأت في حضوره إلى مدريد تأثيثا ووظيفة وبيدقا فسيفسائيا تتلون به اللوحة كل حين.

تقوّت الشخصية وأصبحت لها حقوق مع تنصّرها ودخولها في الدين المسيحي. كان الأمير يشعر بكل هذا. امتلك مع شعوره حياة شخصية صاخبة كبركان يبدو هادئا هامدا، لكنه يغلي ويشتعل في أعماقه. ربما هو شعور بأن الحياة تمضي، وبأنه يملك ما يعيشه في لحظته أكثر مما يملك في ما سيأتي الغد له به وهو يجهله.

ربما تعوّد على روح المغامرة ومخاطرها خلال مرحلة شبابه ببلاد البرتغال، حين كان يجرؤ على الاكتشاف خارج رقابة أو حراسة تأمن سلامته. كما أن علاقته بصبح التي امتزج فيها الحب والشعر والفن والرقي بالإنسان كانت ملائمة لثقافة العصر والمجتمع الذي انخرط في أسلوب حياته بالعاصمة مدريد. كانت صبح ملاكا بُعث لكي يرقى به فوق تعقيدات الواقع والسياسة والتاريخ. كما أن صلته بأمه بياتريس جعلت الاندهاش ينبعث كل حين، وذلك الأمل الذي ينصبه المسيحيون حتى يروا المسلمين إما منمحين أو معتنقين للديانة المسيحية.

لقد تورم الجرح واندمل وتقيح لقرون عديدة، زاده ملح البارود ومرارة تذوقه في اللسان، بالسيف والكلمة، بالحروب الصليبية وخطاب الأحقاد الكنسي والسياسي. استنتج الأمير بتدرج بعض هذه الأفكار التي نمت في حقول وفضاءات لم يكن يتوقع حدوثها فيها. كلما كانت كوريدا، أو حفلة، أو طقوس تجسد ذات المسيحي أمام ذات الآخر المسلم، رأى ذلك التفريغ وذلك الصراخ. تخيّل نفسه ذلك الثور الذي اقتيد إلى ساحة الكوريدا، وكيف سيتفنن الرواد في استدراجه وإيلامه وطعنه والقضاء عليه. كان هؤلاء الرواد هم الفرسان، وكان ذلك الجمهور هم الشعوب التي يتم تهييجها لقضايا الكنيسة وقضايا السياسة. تنامت النظرات المتبادلة والمستنتَجة قبل الحوارات والتصريحات. حتى من الحلقات الشعبية في الساحات العمومية بمدريد أو تلك السهرات الخاصة التي يجعل فيها النبلاء من المهرجين سخرية على أعدائهم، كلها غرست خنجرها الذي غار وعمّق جرح الأمير. بين انتمائه الإفريقي والإسلامي، وتواجده بإسبانيا ومملكة قشتالة والمسيحيين، ها هو يقف على مفترقات طرق في تاريخ الذات والإنسانية.

لقد أغنت تواصلاته المتميزة التي جعلته محظوظا بعلاقات فريدة، وبحضوره الأوساط الاجتماعية والثقافية الراقية، وغلّبت كفّة الشعور بالانتماء للوسط الجديد بإسبانيا. وإن كان لا يعرف غيره من انتماء، إلا ما كان من الحاشية التي تذكره بأنه منفي وآت من بلاد لعبت فيها السياسة دورا مصيريا في حياته. وقد شهد له صديقه دي فيغا في ما دوّنه حين كتابته لمسرحيته حول الملك البرتغالي دون سباتيان وحدث تنصر الأمير المغربي، بقوله: "الجلالة التي تليق بأمير فاس: متواضع، أسمر الوجه، طويل القامة، شعر مجعد، عينان مرحتان، بلا لحية، قوي وممتلئ، سريع وشهم، رشيق الأقدام وعلى ظهر الخيل، بسيط، متواضع وكريم". سيشعر بالافتخار مع هذا الوصف البهيج.

كان لوبي دي فيغا جارا له. وكان ميغيل دي سيرفانتيس جارا له كذلك. وكأنه شارع النخبة المثقفة في العصر الذهبي لإسبانيا خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، بل هو كذلك. سبق أن التقيا بميريدا هو

وسيرفانتيس. لكن فضول التواصل والتعرف عليه واللقاء به سيصبح لازمة في ما بعد، وستجعل له أصدقاء وملازمين.

سيستضيف الأمير الإفريقي في مناسبات متعددة ومتفرقة كل واحد منهما. وقد كان إتقانه للغتين البرتغالية والإسبانية وبعضا من اللاتينية، في منحنى متصاعد. كما أن لغته وثقافته العربيتين واطّلاعه على الإرث الأندلسي والإسلامي الغزير، جعلتا منه صحبة مرغوبة في المناقشة والاستفادة. حتى من رفقته السابقة التي يفتقدها الآن لصبح، بقي منها الأثر الكبير عنده. فقد نهل معها الشعر والأدب، وأكثر من ذلك: الحب.

كان المنزل يمتلك فسحة رياض داخلية. غرف أسفل، وأخرى بالطابق العلوي تطل بشكل مستطيل على فضاء وسط الدار. هي تلك الجلسات التي يعشقها الأمير. تذكّره بما روي له حول قصور فاس ومراكش، أو ما وصفته قصائد شعر حولها كذلك. لكن المدن الأندلسية التي تعرّف عليها توأمة في ما قد يشتاق إليه ويحن، تعوّض له ذلك الاشتياق نسبيا. فما يحنّ إليه لن يصله الآن إلا بوطأة جيش ونصل سيوف ومعارك دامية.

بينما كان سرفانتيس يتكلم كثيرا، كان لوبّي دي فيغا يتأمل مولاي الشيخ ويسأل كثيرا. كان الأمير يحرص على ضبط تدخلاته وكلامه حتى لا يخطئ، وحتى يتعلم أكثر ويستفيد أكثر. فالشخصيتان لم تكونا عاديتين، لهما تاريخهما الخاص وتاريخهما العام المشترك مع الدولة القشتالية الإسبانية، ومع حوض البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي. شاركا في حملات عسكرية برية وبحرية، قدما وبرهنا على ولائهما، وكانت لهما إضافات أغنت الحضارة والحركة الأدبية والفنية والفكرية الإسبانية.

كان سرفانتيس ولوبّي دي فيغا متنافسين بفطرة المتسلقين سلم النجومية الأدبية. يعلمان أن المجد الأدبي سيجلب لهما رغد العيش وكرم البلاط الهسباني. كانا غزيرا الإنتاج المتنوع في فنون وآداب شتى، صاحبا تجارب ومغامرات. كلاهما شارك في الحملات العسكرية ونال أوسمة وترقّى. لكن سرفانتيس كان صاحب

التجربة القاسية، تجربة الأسر والسبي والقسوة التي عاشها كأسير ببلاد الجزائر. رغم أن دي فيغا هو الآخر عرف السجن والتغريم والنفي داخل بلاد إسبانيا. ربما ارتبط ذلك بشخصيته التي تحب روح المغامرة وتنخرط في مخاطرها. كلما لام الآخرون ميغيل على أخطائه وأشكال تهوره، كان يشير إلى جانب رأسه بسبابته. وكأن رسالته أن الأهم هو هذا العقل المفكر والمبدع، وتلك الريشة التي ستكتب وتدون.

كانت الإمبراطورية في اتساع واكتشاف واحتضان، وكان الكاتبان في غمرة المد الفكري والأدبي والفني المواكب. وكأن منارة الذهب بإشبيلية، وخزائن المال المتراكم للدولة والذي زاد في غناها، لا يأخذ طعم حلاوة واستساغة مذاق إلا مع السونات الشعرية الرباعية، والملحمات والمسرحيات الشعرية والروايات التي تنتجها هذه النخبة.

هو ذا عالم الأمير الجديد الذي باركته الأسرة الملكية، واعتبرت تواجده بالعاصمة مدريد عملة بواجهتين، سرعان ما سيتباعد الوجهان فيها، وسرعان ما ستتسع الهوة الشارخة داخل شخصية الأمير مولاي الشيخ بعدها. عفوا دون فيليبي دي أفريكا.

لكن العيش برُقي وتقدير المكانة، والاستئناس بتواجد هذا الأمير الإفريقي في جل المحافل والمناسبات، كل هذا جعل الشخصية مقربة أكثر إلى أكبر فضوليي عصره ومغامريه في الحياة والفكر: لوبّي دي فيغا، وميغيل دي سرفانتيس.

كانت جلسة ما بعد العصر بتوقيت بيت الأمير، الذي ما يزال يحتفظ ببعض طقوس الحياة الإسلامية. كان يستعد للخروج واستنشاق هواء نقي جديد، وجعل انتعاش للجسم بحركة ومشي وتواصل مع العالم الخارجي، ما دام العالم الداخلي تاريخ ونفسية وأهل وخدم وفضاء منزل يقيم فيه. التقى بعد خطوات من حصة المشي لمسائه هذا، جارَه ميغيل. جعل الحوار بينهما يلفت انتباههما إلى المشترك في الفكر بين أدب الشرق وأدب

الغرب. كان حديث ميغيل عن الكوميديا الإلهية للكاتب الإيطالي دانتي أليغري[13]. مما جعل الأمير يتشوق لعنوان الكتاب وللاطلا ع عليه.

طبعا لقد سبق لميغيل سماع روايات المسلمين حينما كان أسيرا بالجزائر. لكنه اليوم منشغل بتخيل آخر مهتم بالأدب أكثر من اهتمامه بالاعتقاد. وصف للأمير باختصار فحوى الكوميديا، وبدا الفضول الزائد عند المستمِع، الأمر الذي جعل سرفانتيس يدعوه لجلسة مسائية، ما دام المنزلان متجاوران.

ما أبهر الأمير في فضاء منزل سرفانتيس، هو ذلك التنظيم المحكم الذي يوزع به مرافق بيته، بين غرفة نوم وفضاء تعبد، ومجال قراءة ومكتب خشبي تحيط به مدفأة وطاولة صغيرة ورفوف كتب عدة. لعل النجار الذي صنع هذا الأثاث فنان جعل كل شيء بمقاس ودقة متناهيين. كانت أسقف المَرافق من خشب سميك ولون بني مغاير لنصاعة الجدران. تعددت التماثيل وأحجامها بشكل غريب. أما اللوحات فكانت بشخصيات متنوعة ورمزيات تشير لتاريخ الكنيسة والمسيحية كما لتاريخ إسبانيا. يشرح سرفانتيس لضيفه وهو جاحظ العينين، جاعلا فاصلا زمنيا بين حديث وآخر. كأنه ينتظر استيعابا أو استنتاجا آخر مغايرا لما يُقال، ولما يُسمع.

. نزيّن الفضاء، علَّ الذات تلتحم وتتبلسم. كلما انتهيت من كتابة استفزني الواقع واتهمني بأنني كاذب وجاهل. يذكّرني تاريخي الخاص باسمي الكامل الذي ورثته عن أبي وأجدادي. وكل حين، يجعلني أطل من شرفة أو نافذة، ويدعوني إلى احتمالات مصير الذات مع ما يحدث في الواقع. ماذا لو حاسبوني أو حاكموني على اسمي اليهودي القديم؟

. لعله الخيال، صديقي ميغيل.

. كيف؟ اجلس واسترح !

مقعدان خشبيان بسنديهما الجانبيين لكل واحد منهما. ناعمان بثوب قطني أحمر، ومنمقان بزينة ذهبية مؤطرة لأشكالهما. كراسي أخرى عادية بجانب الجدارين. خلفهما كان الستار السميك الذي يغطي النافذة

[13] ـ شاعر إيطالي (1321/1245م)، اشتهر بعمله الكوميديا الإلهية. يعتبر قاعدة اللغة الإيطالية الحديثة.

المطلة على فضاء الحديقة الخارجية. قنديلان بشعلتين كبيرتين، كانا كافيين لإضاءة الغرفة. لكن ثالثا أصغر كان ذا وظيفة تتبع سطور المقروء من الصحف الموجودة أمامهما.

أخذ سيرفانتيس نسخة الكوميديا الإلهية بين يديه، وجعل يتصفحها كأنه يطّلع عليها أول مرة. لكن ما بدا من نظراته هو البحث عن درجة تأثير كلامه وإشاراته على محيا الأمير.

. هذه الكوميديا، كُتبت في القرن الرابع عشر ميلادي، بين 1308 و1321، من أهم الأعمال في الأدب الإيطالي، لصاحبها دانتي أليغييري. هي رحلة إلى العالم الآخر، بين الجنة والنار، مواصفات المقام والانتقال بينهما وفيهما.

وأخذ ميغيل يعدد العناوين ويشير إلى فهمه لها وتساؤلاته معها. تذكّر خلال ذلك جليسُه الأميرُ أمرا مهما، جعله يقاطع محاوِرَه:

. تعلم يا ميغيل ! منذ صغري تربيت على الاحتفال بمناسبات دينية إسلامية. حتى من القرآن الكريم فقد تضمن سورة خاصة برحلة ليلية عنوانها: الإسراء. ومعناه في اللغة العربية، السفر ليلا. ملخّص القصة هو رحلة النبي محمد عليه السلام في إسراء ومعراج.

. أما زلت تؤمن بنبي الإسلام؟

سؤال قطع حبل الحديث حول موضوع الكوميديا ورحلة الإسراء، وجعل وجنتي الأمير تلمعان مع بريق القناديل. لكنه وجد جوابا مستلهما من فلسفته التي بناها مع حبيبته صبح:

. كوني مسيحيا الآن لا يعني نقضي لما آمنت به في الإسلام. لستُ مسؤولا عن صراعات أتباع الأديان، ولا عمن له شرعية الحقيقة والتبني لها. لكن، كن على يقين يا ميغيل، إذا بنيت إيمانك على حب، فاعلم أنك ستنجح في حب جميع الأديان، مثل حبك للآداب وهيامك بخيالاتها.

يبتسم ميغيل ويتمعن كثيرا فيما سمع. وجد نفسه مطبقا لهذه الفلسفة دون أن يشعر. ها هو يستلهم من مخالفي ديانته فلسفاته وآدابه وخيالاته التي يعتمدها في تفكيره وكتاباته.

. قل لي دون فيليبي ! هل هو سفر واحد أم أكثر. تكلمت عن الإسراء والمعراج. لقد سبق أن سمعت الحكاية بالجزائر. لكنها الآن مناسَبة لتفاصيل أكثر.

تبسّم الأمير لكونه شعر بالقدرة على المضي أكثر في الحديث عن قصة يعرف جل عناصرها، فقد بقيت راسخة في ذاكرته مثل قصص تاريخية ودينية أخرى:

. ما أزال حافظا لآيات من سورة الإسراء: "بسم الله الرحمن الرحيم، سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله، لنريه من آياتنا، إنه هو السميع البصير" . تعتبر هذه الآية الأولى التي تفتتح بها السورة. وأتمنى ألا تقول لي من جديد: أما زلت مسلما ! تصعد قهقهات رجّت هدوء الليل والجلسة. لكن نظراتهما وحدسيهما صهرها احتمال الوقوع في كل فهم خاطئ أو مؤول للكلام. يبتلع ميغيل خلال ذلك ريقا، ربما اعتبره دون فيليبي مجرد وظيفة غددية عنده.

. ما الذي تتضمنه؟

يبتسم الأمير من جديد، ويمازحه في كونه هو الذي أتى للاستفادة من الكوميديا.

. لنا كل الوقت لشرحها أكثر مولاي الأمير. فقط، بدت هذه الإشارات في التشابه بين العالمين المتخيّلين هنا. هي رحلة إلى العالم الآخر. هذا ما بدا لي. أنا كذلك أجدني في كتاباتي أمزج بين مقروءات عدة.

. نفس الأمر أثار انتباهي صديقي ميغيل. القصتان متقاربتان في موضوع التناول.

. حتى لا نثير مخاوف الأهل يا مولاي، دعني أبعث خدمي حتى يخبروا أهلكم بتواجدكم معنا. شرفتمونا مولاي.

. انتظر يا ميغيل ! دعهم يجلبون لمجلسنا فقيهنا المالكي أبا جليل الغيثي. هو الآن مستشاري وليس فقيها أو مفتيا داخل حاشية إمارتي. ربما سيعرض علينا تفاصيل رحلة الإسراء والمعراج أفضل.

لما سمع سرفانتيس بقصة الإسراء والمعراج، انبهر واندهش لتفاصيلها الدقيقة، ووظائفها الرمزية الكبيرة. كيف تنهل عقيدة المسلمين وعبادتهم ومعاملاتهم من ينابيع المعجزات. وكيف تنصهر وتندمج قيمها مع توجيهاتها

السلوكية والتعبدية. اعتبر الأمر عظيما وجليلا. امتلكته نوبة شطحات، جلعت شواربه تتراقص بين أنامله كهر مجنون أمام فريسة يتلاعب بها. وما كان التلاعب سوى بالمادة السردية التي وجد فيها مبتغاه. فسرفانتيس، لم يجعل دوما مغامراته وتجاربه لأجل المال فقط، ولا لأجل الرقي في المراتب المجتمعية والتقرب من البلاط القشتالي. هو يعلم بأن عوالم الكتابة أصبحت تمتلكه سحرا وجمالا وتعبيرا. يدرك أن كتابته تنتمي للمستقبل، ولمن سيأتي بعده. يلمس ذلك فيمن تلقوا ما كتبه لحدود لحظته. كم هم بعيدون عن مقصوده وما أراد تبليغه فيها. وقد فكر في تأجيل نشر هذا الكتاب للعموم، ربما جيلُه لن يفهم رسالته.

تلك رسالته، مثل الأنبياء والقديسين. ألم يكن المسيح صاحب الإنجيل مبعوثا لمهمة بدأت بعد رحيله أكثر. كذلك أنا ميغيل دي سرفانتيس سابيدرا. ورغم أني لست نبيا ولن أكونه أبدا، ولست راهبا ولا أحب وظيفة الكنيسة. أنا الطائر الحر، المحلق فوق البحار والبراري. تُراني أين سأرسو بسردي وشعري الآن؟ ضالّتي؟ ما تزال مهمتي داخل بحر الشعر والشعراء هذا المساء. وكم اختلفت وتناقشت مع لوبّي دي فيغا، ومع فرنثيسكو دي كيفيدو ومع غيرهما.

"سأنسج إسرائي ومعراجي الآن".

كانت هذه بدايات جمله التي خطها بعد رحيل ضيفه السمري، الأمير دون فيليبي. تخلّص من زيّه الرسمي. أسدل عليه لباس نومه، لكنه لم يخلد إلى فراش. جلس أمام مكتبه البني وراقص مرتعشا ريشته ومدواة حبره. من هو قريب منه بجدار أو باب، قد يسمع ترديداته المنمنمة وكأنه في تعاويذ صلاة. كان في رحلته وحجه. لم يختر بلاد العرب، لا مكة ولا القدس. اختار جبل بارناسوس. نعم، تلك الآلهة التي سترافقه في رحلة جنونه الجديد، والتي ستسمح له بحرية تخيل أكبر: (رحلة إلى بارناسوس **Viage del Parnaso** *).*

كانت الدابة المختارة بغلة سيمتطيها خيالا ومجازا، من مدريد حتى فالنسيا، ثم قارطجين، وجينوا، فروما، ونابل، ومضيق ميسين. وهو المحارب الذي جاب البحر الأبيض المتوسط، وعلم بجغرافيا المجال. لن يكون حصانه **rocinante** *في دون كيشوط هو البطل في الرحلة. ستكون بغلة هي التي ستتحمّل أوزار هذا السفر الجديد. كانت السفينة رمزية في الرحلة. ستقل الشعراء في رحلتهم هذه، الجيدين فقط منهم والحقيقيين. ولا بد من قربان. سيكون هو الشاعر أنطونيو لوفراسو. ربما لطيبته وصدقه وروحه المرحة،*

سيتقبّل هذا الدور المفترض له. وكان الوصول إلى مجرى منحدر من جبل بارناسوس باليونان. شرب الشعراء من نبع كاستالينا. تم استقبالهم من طرف الإله أبّولو: إله الشعر. كان هو المبتغى في جعل رسالة الحرب بين الشعراء الجيدين والشعراء الرديئين. رحلة تخليص الشعر من الرداءة والقبح. كانت الحرب ضرورية، لأن قضايا التاريخ والحياة لا تخلصها سوى الحروب. كما أن حياة وتجربة سرفانتيس مليئة بالمواجهات بين الشرق والغرب. حتى من الجزء الأول من روايته دون كيشوط، كانت محاربة الطواحين الهوائية ضرورية، مثلما نحارب القدر والزمن والوجود والمصير في الحياة. وكانت الرسالة المشفرة والرمزية مبعوثة للمستقبل، وللعقول الذكية والفطنة. فقط الأنبياء والشعراء يدركونها، وقد جعل مباركة عمله الجديد بالمثول أمام إله الشعر والشعراء: أبّولو، على قمة جبل بارناسوس.

طالت ليالي سهر سرفانتيس. وكأنه كان يبحث عن القطع الذهبية بالنهار، لكي يقوم بصقلها ونقش عملاتها المختارة بالليل. تلك كانت ريشة خياله. ولكن، بعيدا عن الأعين المتجسسة لمنافسيه من مثل لوبّي دي فيغا.

كان دون فيليبي كل مرة يطلع على مسار الرحلة والكتابة، ويتعجب كثيرا لخيال صاحبه الفياض. فقط ما كان من ليلة اجتمعا فيها من جديد، واستمعا لحديث أبي الجليل الغيثي، مستشار الأمير، تكلم فيه عن كتاب آخر لأبي العلاء المعري[14]، يشبه ما اطلعا عليه في الكوميديا الإلهية.

كم كان يتمنى أن يحقق حلم ملحمته الخاصة. رواية دون كيشوط، اعتبرها للعامة، ذات طابع تعليمي، وبسخرية ورمزية اجتماعية، أما رحلة إلى بارناسوس، فهي السفر الذي تمناه منذ بداية انشغاله بالكتابة والتأليف. حتى جروح الأسر والسجن التي تعرض لها سواء عند المورو أو في بلده إسباني، فقد حان وقت تطهير الذات منها.

ستكون معانقة آلهة اليونان والإغريق خير هوية يختارها في حياته. الشرب من نهر وماء كاستالينا، ورفع الآلهة لراية الانتصار للشعر الجيد والقضاء على الرديء. تلك غايته، وذلك حلمه الذي أراد به تصفية حسابه مع كل من عاصره ومن ادعى تمثيله لأدب الإمبراطورية وعصرها الذهبي. قد يجد غصة في حلقه تبلورها عقده من الشرق الإسلامي، ومن الاحتلال الذي تعرضت له شبه جزيرة إيبيريا، بل بلاد المسيحيين ككل. قد

[14] - أبو العلاء المعري (363/449هـ - 973/1057م). صاحب رسالة الغفران.

يشعر بأن هناك عدم رضا بهذا الحضور العربي الإسلامي المكتسح لفضاء الحضارة والوجود. لذلك، سيجد نفسه متوجها كما غيره إلى النهل من حضارة قريبة من جغرافيته، ومن لغة كنيسته. لم يكن يوما ما مسؤولا عن هذا التطور بعقده الحضارية والثقافية. لا يستطيع جعل اعتراف مباشر لفضل ما وجده وما سمعه وما اطلع عليه واستفاده من المسلمين ومن الموريسكيين، فذلك سيجعله في قفص الاتهام، خصوصا مع امتداد تسميته اليهودية. كانت المرحلة مرحلة محاكم تفتيش و طرد لغير المسيحيين من بلاد المسيحيين الجديدة، من إمبراطورية قشتالة وهسبانيا.

لكن قفص اتهام آخر ربما سينصب شراكهلاصطياده. وكم هم من ينتظرون هفواته. ألا يمكن اعتبار عناصر التخييل انتصارا للوثنية والأساطير، وتقزيما بل تهميشا للكنيسة؟ وربما لطقوسها التطهيرية؟ حتى إذا ما جازف فرد بأطماع الدنيا وزلاتها، كان الدير والراهب المرافق والمراقب خير فضاء له وتوبة ورفقة.

لما قرأ الأمير الإفريقي النسخة الأولى لمنظومة السفر إلى برناسوس، ابتسم ولاحظ حضور بصمةِ ما رواه له حول الإسراء والمعراج، هو والفقيه ـ المستشار أبو جليل الغيثي. هكذا سأل الأمير صديقه سرفانتيس:

هل جعلت للدابة تسمية في رحلتك؟ وأرى أنك جعلتها معركة ومواجهة. لكنك العاشق للسفر، سواء في روايتك دون كيشوط أو في قصيدتك هذه. ألاحظ أنك عاشق للخيال والعجيب والخارق للعادة. عكس ما أسجله عند صديقنا لوبّي دي فيغا.

ـ كيف؟ ما الذي أطْلَعك عليه هذا الفضولي الكبير؟

ـ يهتم بسيرتي كأمير سعدي، وبتاريخ المرحلة الحالية. إنه في خضم التأليف. يميل إلى أدب واقعي في التدوين.

ـ الواقعية، صديقي الأمير، تحتاج إلى المواجهة. كم كلفتني من حريتي ومن مالي. أنا أكتب لمن يأتي بعدي، لعله يجد معنى ما جعلتُه مرموزا في قصائدي ورواياتي. وكتاباتي.

ـ يعجبني أدبكما معا، مثلما تعجبني المسرحيات التي تقدم في فضاءات مدريد. لكن، عندي سؤال لك يا ميغيل:

في إسرائنا ومعراجنا، أعني في معجزة نبي الإسلام، فُرضت الصلاة. فما أنت فارضه في رحلتك إلى جبل بارنسيوس؟

جحظت عينا سرافنتيس. أمسك بطرف شاربه وهو مطرق بالتفكير في السؤال:

. لست نبيا يا أميري. يكفيني أن أحاور الغيب والما وراء من خلال أشعاري وكتاباتي. ما أكتبه يتضمن انتقادات ورسائل. وما يلتقطه الآخر هو ما يهمني. ومثلما أنتقد الطبقة السياسية، أنتقد الطبقة المثقفة، وحتى الدينية، ولكن بحذر شديد جدا. إننا نعيش على حمى نار تتقد وتُحضِّر لحريق كبير. كل الذي تراه من حضارة مثل الورق، أو قل مثل كتب المسلمين واليهود التي أُحرقت. ضاع معها المستقبل، مستقبل الإنسانية ككل. إيبيريا تحتضن هذا الحقد والتطرف في الرؤية لحياة البشرية. أشعر أنني أنا الغريب مع كل كتابة أقوم بها. أنا الغريب في الوجود. سيضحك الناس في قراءتهم لشخصية دون كيشوط، لكنهم سينسحقون بمرارة واقعهم الذي يترجمه في تخيلاته. تُرى من المتأثر فعلا بالرسالة؟ هم طبعا.

أما بالنسبة لما يأتي به الأنبياء، فكن على يقين أنني لو نافستُهم في تخيّل شيء منه لرمتني الكنيسة بالكفر والخروج عن الدين المسيحي. ألا ترى بأنهم يتربّصون ليل نهار كل فرد، وكل معتنق للمسيحية ولو أنه كَبُر مع أبيه وجده في ظلها. العيون الخبيثة ممتدة من روما إلى ظلال دروب مدننا وقُرَانا. ويلٌ لمن رُسمت على بابه وصمة الارتداد. وربما أحكم بسبب اختياري للإله أبّولو في منظومتي هذه.

أما صديقك الذي يتقرب إليك نفاقا، لوبّي دي فيغا، فهو مغامر في كتاباته. فعلا إنه وحش الطبيعة وعنقاء العباقرة، وفينيق الإبداع. كلها أوصاف جعلتُها له. لكنه يمثل، وربما أكون مثله، ذلك الخانع لقدر السياسة وتعصب الكنيسة. إننا لا ننعم بمواطنة بلاد شمال أوربا وحريتهم. هم أفضل منا. نحن مجرد خدم عند عائلة هابسبورغ وعند الكنيسة. مجرد قطيع. لذلك كان دون كيشوط يسخر من الجميع. يظنون أنه مجنون، وهو يشفق لحالهم الذي أصبحوا عليه: عاجزين عن التغيير للأفضل. أظن أنني سأتريث قبل نشر أعمالي الجديدة، سواء الرواية المكملة لدون كيشوط أو هذه الرحلة إلى بارناسوس. أخاف أن يعتبرونني داعيا إلى وثنية جديدة مرتبطة بالآلهة اليونانية والإغريقية. خصوصا وأن منافسي دي فيغا سيجدها مناسبة لتأويلها بما يخدم معركته معي.

لقد كان دي فيغا مجددا في العمل المسرحي، وكان الجمهور المتابع لعروضه مفتون بها. لم يجد الأمير مسوغا للطعن بهذا الحجم في صديقه الثاني. لذلك اكتفى بتأمل كلام ميغيل الذي بدا مشحونا بانتقادات واسعة ومتنوعة. في آخر زيارة قام بها الأمير لبيت لوبّي دي فيغا، لاحظ عنده هو الآخر ذلك النظام الخاص الذي يجعله متفرغا لجلسة مكتب خاص، يقضي ساعات في مكتبته. استفاد منه حِكما كثيرة: التوقف عن الكتابة توقف عن الحياة. لكنه حين سماعه إلى غرابة حياته ومغامراته، وجده مثل سرفانتيس، مبدعا يبحث له عن ضمانة أرستقراطية وثروة للعيش كافية. يتذكر حينما حاوره يوما ما:

. أتعلم يا صديقي لوبّي؟ أشاركك هذا الشغف والحب للأدب.

. عليك يا أمير أن تهتم بالحياة قبل الأدب. لولاها لما كان هناك أدب. رغم أن الأدب رحلة شاقة. كيف يمكنك اقتلاع أشواك من حقل ورد بيديك؟ لا بد أن تتعرض لجروح. هذه رحلتنا في الكتابة، وقبلها الحياة. ربما الحياة هي ساق الوردة وأشواكها التي تحميها والتي ننجرح بها في آن، بينما الوردة هي تاج هذا الحال، هي الكتابة والإبداع والفن. وسلامتك يا أمير صدق تعبير إخلاصا لصداقتنا.

. لا عليك. ما دام انجراحا بالجميل، فيمكنني تحمّل ذلك. كم جرَحنا الورد حين قطفه.

. وكم جرَحنا الحب حين السباحة في يمه.

يضحك الإثنان، ويجد لوبّي دي فيغا نفسه آخذا لريشته ومدونا لما استنتجه مع صديقه الأمير:

. ستكون عبارة في سونات مسرحيتي الجديدة.

. وما مضمونها؟

. في الحقيقة هي التي تكتبني. أعرض عليها تجاربي ومشاعري، وأترك لها نظم سوناتها المناسبة.

يبتسم لوبّي لما أجاب به الأمير، ويعتبره لباقة تجنب لكشف مضمون ما يكتب في لحظته.

لكن مسرحية حول سيرتكم وسيرة دون سباستيان ملك البرتغال، جاهزة بين هذه المخطوطات أمامك. سنجعل لها وقتا للتأمل والمراجعة. ما رأيك يا أميري دون فيليبي؟ لا تنسى أن كرمك سابق في التحقق بما نظمته في حقي من شعر بهيج.

. وهو كذلك يا صديقي.

. اعذرني يا مولاي. قد أطرح عليك بعض الأسئلة، فتبدو مستفزة. لكنها الكتابة تريد الفهم وتعميق البيان.

. لا عليك. نحاول بين الواقع والحقيقة والكتابة ما نستطيعه بيانا.

. وسأسجل هذه الفكرة التي بُحت بها الآن.

استيقظ الامير مفزوعا ومرتعبا من نومه. متصببا عرقا وثيابه مبللة لدرجة تحول حرارة الجسم إلى برودة وارتعاش. كان الفصل خريفا، وكان الطقس متحولا إلى مناخ شبه قاري مرتفع الحرارة بالنهار ومنخفضٍ بالليل. سبق أن تعرض لنزلات برد في مثل هذا التوقيت من السنة. لكنه يعلم الآن، أنها فكرة راودته كأسئلة مبهمة، تضايقه في لحظات من يومِيّه. وسرعان ما ينتقل عنها إلى غيرها. بقدر ما يؤجّل مواجهتها بقدر ما كانت شبحا يتسلل ويسكن دواخله ولا شعوره، كما اللحظة الآن.

في ظلمة حالكة، انطفأت خلالها أنوار قاعة العرض المسرحي الذي حضره لليلته، وعمّ الصمت المطبق فجأة، حتى من همهمات الجمهور المتفرقة أو حشرجاته المنفلتة، كل هذا انعدم كلحظة حلم خادعة، ناقلة لصاحبها من صورة إلى أخرى مفاجئة وغريبة. وكأنه فوق خشبة مقصلة أو إعدام بحبل مشنقة. قد يختار بين الحبل والمقصلة، إذا ما خيّروه. كان سيختار طعنة واحدة أو خرطوشة بارود مميتة وساكنة.

نظر حوله، رغم الظلمة المهيمنة. لا شيء سوى صمت الحكاية، وأثر ذلك الحلم الكابوس. وكأن عمه جالس أمامه. لا حاجة لضياء قناديل أو ليلة مقمرة. هي الروح في شساعة الكون حيث لا قانون ليل أو نهار. يشتمُّ رائحة مجالسه ومحاوره. رائحته تسكن خياشيمه منذ عقود مضت.

. الآن بان الفرق بيننا يا ابن أخي. روحك احترقت. لقد خنتها باختيارك.

. لا يا عمي. لست خائنا. لا أملك روحي حتى. لا أملك طفولة ولا صبا. أي حياة أمتلكها وأنا اليتيم من أرض أجدادي ومن حضن أبي. كنتَ سندي في رعايتي وتربيتي. قل لي يا عمي: ما الذي ضمنه لك القدر لكي تحقق معي رسالتك في تربيتي وإعادة مجد مملكتنا وحكمنا؟ يوم تمّ نفيُنا، حُكِم علينا بالعدم.

. أنت أمير المؤمنين. يعني أنك المسؤول الأول عن إيمانهم في الدنيا والآخرة. شهادتُك من شهادتهم، وجهادك من جهادهم، وعدلُك من عدلهم يا مولاي. أنت رُبّان السفينة الذي لا يتركها إلا بعد نجاة ركابها وضمان سلامتهم. أوتعلمْ؟ ! أنت حبة الزرع التي انعدم حقل زراعتها، وينتظر زرعها من جديد كما ينتظر انتشار نُقلتها في عموم الأرض.

. عمي ! لا تُحمّلني ما لا طاقة لي به. السفينة التي تتحدث عنها، كنتُ أحد غرقاها. رمتني الأمواج على شاطئ مهجور وغريب عني وعن لغتي. ضمّني أهلها ورسموا لي مسار حياة جديدة. كما جعلوني حبة قمح مستساغة لقضمهم وهضمهم.

. ألا تخاف من النار؟ ومن عذاب جهنم؟

. ليس لي خيار يا عمي. أما الخوف الذي تتكلم عنه، فإنه فضاء استكشافي، وبحر سباحتي. أعيش في حضنه وأستنشق هواءه ورطوبته مثل رطوبة الهواء البحري الذي تنسمناه رغما عنا في لشبونة وما جاورها من بلاد البرتغال. لا ضمانة لي غيره. به أكتسب القوة في الخطوة الأولى كل يوم. كل لباس أرتديه أو ارتديتُه، حمل معه رائحته، واستغرب منه الذي يشمُّه وينظفه. لقد جعلوا لي كل الأنبياء تشبيها ووصفا، ونسوا أن يشبهونني بإبراهيم عليه السلام، أب الأنبياء حين رموه في نار فجعلها الله بردا وسلاما. لكن إبراهيم نجا وخرج منها، وأنا ما زلت داخلها، هذه النار الباردة. ربما ديانتي الآن ليست بمسيحية ولا بيهودية ولا بإسلام. أرى في عيون الجميع ذلك الارتياب الذي يبدو على محيا أصحابها. ديانتي إبراهيمية، ما دام الرب رب الجميع، واحد أحد.

. بقدر ما تبرر بقدر ما تفلسف الأمور. لقد ذهبتُ الآن إلى الدار الآخرة. فقط حضرتُ لكي أساعدك في الاختيار، لما تبقى من العمر والحياة والرسالة.

***يلتفت لجهة النافذة. كان اللازورد مهيمنا على مبعث ضيائها الخارجي. بدأ يوم جديد، بِصمتِهِ الرهيب، في انتظار هذا الجديد. رأى في زرقته اللامعة توهج ابتسامة صبحه* ALBA .**

"سأكتب مذكراتي. ربما هي بوحي وتعميدي الحقيقي. إنها كتابة للروح أمام الروح. عملتها الحقيقية هي الصدق الداخلي. هي شهادة حول شقاء حياة وشقاء السعادة داخل سعادة متاهة، ومتاهة غير مشتهاة. أفضل أيامي ربما، هي تلك التي كنتُ أنا من اختار فيها ما يريد وما يفعل. ربما تكون اختيارات صغيرة لمغامرات بلهاء، لكنها كانت تشعرني وتغمرني بسعادة كبيرة.

أحتار بين وصية العم التي أصبحت توقظني من عز النوم، وبين حضور أمي الذي يرعاني لحد الآن" .

. لا أستطيع مزيدا من التحمل يا أمي. كما ترين، نفقاتنا زادت، وخزائننا في تناقص كبير منذ قررنا ترك عمي مع الآخرين بأطريرة. الأوساط هنا بمدريد مكلفة في مرافقتها وعيش نمطها. حتى العطايا غير منتظمة في منحها لنا.

. سنجد حلا قريبا يا ابني. لكن، عليك البقاء منخرطا في الساحة الاجتماعية والفنية. هو اقتراب دائما يجعل الأسرة السياسية تطمئن لولائنا ومعتنقنا الديني كذلك. لا تنسى أنهم حقودون كذلك. رغم وجود من يحترمك ويقدر دورك وحضورك بينهم ومعهم. لا يهمك هذا البعض الذي قد يسخر من وضعك وانتمائك. شخصيتك لا تزيد إلا بهاء وتألقا. كما ترى، كل هذه الفنون والآداب الرائعة هنا، لك في وسطها ذوق وأصدقاء ومتعة كبيرة. لا أرتاح فقط لهؤلاء المشاغبيْن.

. من تقصدين يا أمي؟

. نحن في حي الأدباء والفنانين. وجلهم يتقربون لك طمعا في سخاء عطائك، أو تقربا عبرك وكأنك جسر يوصلهم لأصحاب القرار والنفوذ والعطاء. أقصد بهما ذلك المدعو سرفانتيس، ومنافسه لوبّي دي فيغا. يبدوان مثل القط مع الفأر. هذا ما وصلني عنهما.

يضحك الأمير الشيخ حتى بدت نواجده البيضاء. اعتلى بريق في عينيه وهما تنفتحان نظرا مع تعليق أمه.

. عليك أن تعلمي يا أمي أنني استفدت منهما الكثير الذي يجعلني أرتاح لتواجدي هنا بمدريد. هناك فرق بين كرمونة ومدريد طبعا. كرمونة، منحتنا الاستقرار والتجمع العائلي. رغم تخوف أهلها منا، وتشكّيهم من عددنا ومنازلنا وتواجدنا. لم يظهروا عداء عمليا. حذَرٌ هو، نعم. تعامل يقظ، نعم. بل منهم من وجد طريقا لاسترجاع حنين وارتباط تاريخي فقدوه مع زوال الحكم الإسلامي من بلاد الأندلس. كنا عصبة هائئة البال هناك. أما هنا بمدريد، فبقدر ترقّينا في الوسط السياسي وقُربنا من البلاط، بقدر تورطنا في خلافات الإسبانيين الداخلية، وصراعات المسيحيين بين الكاثوليكية والبروتستانية. كل واحد منهم يريدنا في صفه، ونحن لا قرار لنا في كل هذا.

أما عن هذين المغامرين الإثنين . يبتسم وهو ينطق بالكلمة الجامعة لهما . فهما أرقى قومهم صراحة وشجاعة قول. إبداعهم يترجم ذلك. بالنسبة لخلافهما، فهو أمر عادي مثل القاعدة اللغوية عندنا في العربية: ساكنان لا يلتقيان. كل له أسلوبه الخاص به.

يضحك الأمير ويتابع:

. مشاغبان لا يجتمعان.

يضع كفّيه على كتفي أمه الجالسة في تأمل لكلامه وللحديقة الصغيرة التي تؤثث فضاء المنزل باخضرارها، ويتابع:

. أنظري يا أماه إلى تلك الزهرة هناك في الزاوية اليمنى للحديقة. إنها زهرة الياسمين. غرسها صديقي المشاغب ميغيل. لها نفس الاسم بالعربية (ياسمين . Jazmin).

. ولماذا غرسها هو وليس أنت؟ ألا تملك خدما يقومون بذلك؟

. لا يا أمي. لقد أراد أن يشرح لي أمرا مهما. لم يكن المسلمون يمثلون الشر بالنسبة إليه، رغم أنهم حاربوه وحاربهم هو كذلك. موقفه ليس هو موقف الكنيسة. الإنسان العادي يعرف فصولا متعددة بين ربيع الحب

وخريف الكراهية. أما الكنيسة فلا تعرف سوى ذلك الخريف. لا داعي لتكرار وصفه. وزهرة الياسمين جعلها رمزا لما استفاده المسيحيون من المسلمين في ميادين عدة ومختلفة.

. ألم يشارك في حروب ضد المسلمين كما قلت قبل قليل؟ ألم يسجن ويُفتدى؟ ما هذا التناقض.

. رغم كل ذلك يا أمي، فهو لا يصل إلى درجة الحقد الكبير الذي تغرسه الكنيسة في نفوس الناس. أنظري كم قتلوا وكم أحرقوا وكم شرّدوا من المسلمين واليهود. ولم يرتووا بعد. يعيشون الرعب ولا يرتاحون على حال حتى يروا ذلك الرعب مُصَدّرا ضد عدوهم الأول: الإسلام والمسلمون.

. ألست مسيحيا بما فيه الكفاية يا بني؟

. أمي. اعتناقي للمسيحية انبنى على قيمة الحب والخير والإنسانية التي نسجتُها مع صبح. ألم تكن هي هديتُك لي؟

بالنسبة للمشاغبين، فالمبدع لا يرتاح داخل مملكة الحقد والبغض والكراهية، رغم أن مادته المعروضة لا بد لها من توابل ترضي الجمهور من السياسيين ورجال الدين والعامة من الناس.

وتصدر عن بياتريس صرخة الاندهاش الصغيرة، بصوت أنثوي ماهر، وكأنها في أداء مسرحي ينافس الغريمين ميغيل ولوّي دي فيغا. وتنقد حيرتها بالسؤال الموالي:

. ولماذا هما متصارعان؟ ماذا عن لوّي دي فيغا؟

. يا أمي، صراعهما مثل طاقة توقد إبداعهما. هو حول الأدب والمسرح والشعر أكثر. أما عن لوّي دي فيغا، فإن غريمه يسميه بوحش الطبيعة **La bestia de la naturaleza**. ويسميه: فينيق الإبداع **(Fenix de la creatividad**

. ماذا ستعني كلمة فينيق؟

. إنه حيوان ينبعث من رماد احتراقه. لا يموت. كلاهما محب للشعر والمسرح والموسيقى والحكي يا أمي. وأنا المستفيد من غنى اختلافهما. الأول حالم والثاني واقعي. الأول ينشد السماء والثاني ينشد الطبيعة وأسرارها كما أسرار الذات البشرية. وبالمناسبة فإن الأول اهتم بأفكاري، بينما الثاني اهتم بسيرتي وحياتي.

. كيف ذلك؟

. وجدت ميغيل في قراءة للكوميديا الإلهية لصاحبها دانتي، وهو كتاب حول أهوال الآخرة، أخبرته بعدما أطلعني على محتواها بأن تاريخ الإسلام بدأ مع معجزة الإسراء والمعراج إلى جانب معجزات أخرى لنبي الإسلام. اندهش وطلب مزيد اطلاع. حضر معنا مستشارنا أبو جليل الغيثي، وخضنا في تفاصيل كثيرة. وجد فيها ضالّته وما كان يريد معرفته. لم يعتبر يوما مغامراته أو أسفاره وتجاربه، سوى رسالة تدعو للكتابة. لكنه هذه المرّة، وظفها بخياله في محاكمة شعرية وأدبية داخل قالب الحكايات الأسطورية اليونانية.

تعلمين يا أمي، رغم دخولي في الدين المسيحي، أجدني أنتمي للعالم الذي كوّنته أنا وصبح. عالم حب مجرد، يؤمن بالجمال والحقيقة العليا، لا يحمل ضغينة ولا كراهية. عالم تسامح، ورحلة الذات في الطهارة الروحية. لا أخفيك يا أمي، ألاحظ أن الإسبانيين يعانون من جراح مثلنا. رجال الدين يسكّنونهم داخل آلامها ويذرون عليهم ملح التضميد والتسكين والتهدئة للآلام. يلسعونها متى يشاؤون، ويجعلونها سائحة بما يريدون.

ظننت أن دخولي في المسيحية سيكون تطبيبا لهذه الجراح بأكملها، لكنني وجدت من يريد جعلي مِلْحا للآلام أو كبريتا للاشتعال. كيف يجرؤ رجل كنيسة على دعوتي وهو في زهو فرحته: الآن يمكننا إحراق بلاد المسلمين وأرواحهم ومساجدهم، بفضلكم أيها الأمير.

. دعك من هذا يا بني. واعلم أن الكنيسة شديدة المراقبة، وحريصة على المحاسبة كل حين. يتم الآن التحضير والتنسيق بين روما ومدريد، يريدون طرد من تبقى من اليهود والمسلمين. حتى الذين تنصروا منهم سيتم البحث في مدى إخلاصهم. ربما هي كارثة كبيرة تنتظر الجميع. وأنت تعلم أن تمسّحك جاء برغبتك وحبّك وصدقك. فرق بينك وبين من فُرِض عليه ذلك. زيادة على ذلك، أنت أمير تنتظره مهمة سياسية وعسكرية، وتحظى باهتمام الملك الإسباني بشكل كبير. لا يهمك هؤلاء المهرطقون.

وهل تظنني ساذجة حتى أصدق ما يقولون. مكانتك ارتقت الآن. ومشاركتك في الحملة العسكرية برهنت على صدق تمسكك بالدين المسيحي، وربحهم السياسي أكبر مع تواجدك. أنا مثلك لا أحمل ضغينة على الأديان بقدر ما أحملها على بعض البشر فقط. لا أستطيع أن أعيش في بحر من الحقد والضغينة. سأحترق بنار براكينه الجوفية. الإنسان هو المسؤول أولا وأخيرا على ما يقع، وليس الإله. وكم من اعتراف قمت به في الكنيسة اعتبرته رسالة أحقق بها ما أراه صوابا، كما أنني قد أعتبر توجيهات الاعتراف وأسئلته غير المباشرة عملية تجسس وتربّص بالناس. أعلم أن الاعترافات تترجمها آذان القساوسة ويتم تناقلها بينهم حتى تصل إلى مراكز القرار، هنا بمدريد أو حتى في روما.

لقد شرّفنا مولانا الملك فيليب الثاني بوسام سانتياغو، ووسام بيدار، ووسام ألبانشيث. ولقد شرفتنا بالمشاركة في الحملة الملكية بالفلاندز. كل هذا دليل على أنك وفي للكنيسة الكاثوليكية ومستعد للدفاع عنها بروحك وحياتك. كل هذا يجعلك في مكانة عالية وراقية اليوم. أضف إلى ذلك الغدق والكرم الملكي علينا. كل هذا يجعلك من النبلاء. لهذا يا بني أخاف عليك من المحيط الذي تقرب إليك طمعا أو وصولية عبرها يتبرّك بالوسط الحاكم. وهذان المغامران، ميغيل ودي لوبّي، فإن سيرتهما بحسب ما أطلعوني عليه، متهورة، وبالخصوص الثاني، فهو غير مستقر اجتماعيا ولا طبقيا، ولا أخلاقيا. حتى إبداعه يرفضه البعض ويعتبره خروجا عن المطلوب.

. يا أماه، أنا كذلك شاعر، وتأكدي بأن رحلتي الأدبية معهم اكتشاف وليست بتورط في أمر ما. عبرهما أفهم التاريخ والحياة وإسبانيا الجديدة. لا تنسي، عندي أصدقاء آخرين، إنما هذان فقد بدا ارتباط سيرتي بهما وفهمي الأقرب لهما أكثر.

. أطلنا الحديث عن المشاغبين يا بني، ونسينا الأهم الآن. ما العمل مع ما يروج حول محاكم التفتيش وطرد من تنصّروا من اليهود والمسلمين؟ حاشيتك كلها مهددة يا بني.

. أعلم هذا يا أمي. وهو أمر يؤرقني منذ مدة. ربما هي فرصتهم لإضعاف نفوذي وقربي من البلاط.

. أرى يا بني أن تملأ حياتك من جديد. زواج رسمي تباركه الكنيسة. لي عندك اختيار، ما أظنه سيخيب ظنك وآمالك. ألم تكن صبح وردتي وهديتي لك؟ إن الروح تتيّب وتتشقق تُربتها وتنجرح اعماقها بالفراغ. الفراغ يا ابني قاتل. الزواج إكسيرٌ نملأ به كأس الحياة.

1621 . 1609

بين إسبانيا وإيطاليا

بداية انطفاء نجم في السماء

...

" النار عمياء، إذا أشعلتها في حقل، لا تنتظر منها التمييز بين الحَبّ والتبن"

لم يسلم الأمير الإفريقي من آثار الصراع القائم داخل إسبانيا، بين مؤيد لطرد المورسكيين ومدافع عنهم. كان هناك تضارب مصالح كبير بين اتجاهين متعارضين. كانت الأصولية المسيحية متعصبة إلى درجة عمياء صمّت فيها آذانها عن كل تحليل موضوعي مرتبط بالسياسة والاقتصاد، قبل الحديث عن القانون والعدالة.

عشرون سنة مضت على تواجده بإسبانيا. لم تكن مدة صغيرة طبعا. هي جزء من قطعة حياة متشظية انكسرت معها مرايا الروح، بالخصوص خلال الست عشرة سنة الأخيرة التي قضاها هنا بمدريد.

يتأمل القرميد الأحمر الذي يكسو سطح البنايات، هنا أمامه، من وسط ساحة شرقية مؤدية إلى بوابة الوداع. لم يكن في وداعه مَن أحبهم جميعا. تم اغتيال بعضهم، وتم طرد آخرين. لم يميزوا بين هذا وذاك. ما دام انحدارهم من يهودية أو إسلام، فكلهم نجس يجب تطهير ساحة الإيمان المقدس منهم. لا تقبل مريم العذراء هذا الغموض وهواجس الشك، ولا خبايا الخيانة للروح القدس. لا مكان لمن أخفى مفاتيح التاريخ، أو صحفا ونسبها إلى السماء، أو شعائر ومارسها في خفاء.

في هذا الصباح الباكر، بدت الشرفات والأبواب موصدة، ووفية لهذا التنكر. لم يعد الأمير مرغوبا فيه. يمر شخص جاعلا لحما مفصلا لذبيحة عجل ربما أو بقرة، على عربة صغيرة مجرورة. لم تغلب عليه شحمة بيضاء تجعله خنزيرا. يتذكر الاختبارات التي خضع لها في كم من مناسبة. قد يضطر لأكل لحم الخنزير دونما حاجة

للأكل، فقط لأن الدعوة محطة اختبار تمسيح حقيقية توقع عليها أمعاؤه. قد يضاعف مناسبات شرابه للخمر، هنا أو هناك، فقط لكون أعين من دعاه ماكرة في ابتسامتها ودعوتها له.

في هذا الصباح تأخذه الخطوات كما الموكب خارج بوابات مدريد، تحت أعين حارسة ومنفذة لأوامر. يتذكر محطة كوربا ديل ريو، وأطريرة. مواكبة عسكرية وإدارية لمجيئه إلى إسبانيا، وأخرى لخروجه منها. وها هو الآن تحت رحمة قس مرافق، يجعل قب قلنسوته شبح قدر ومصيرا كُتِب للأمير. لولا كونه قد تم تعميده من طرف الملك الراحل فيليب الثاني، لما كان له أن يفلت من عقاب محاكم التفتيش. أين هو مستشاره اليهودي، وأين هم التجار الذين ألف معاملاتهم؟ بل حتى أطفالهم وزيجاتهم؟

هل نجا هؤلاء من قدر الفتك والدفن الجماعي المتخلص كل حين من الجثث المتراكمة في الحفر المرصودة لتوقيع إبادات في حق آلاف الموريسكيين. هكذا أصبحوا بجرة قلم وبقرار روحي من الكنيسة، مارقين يجب حرقهم. من نجا بجلده وقصد جنوب فرنسا كانت له حياة جديدة. ومن غامر جنوبا، كانت محاولته تُفسر بالخيانة المزدوجة للروح القدس ولعرش إسبانيا.

ضم الموكب زوجته وابنته الصغيرة، وثلاث خدم مختارين. لا دخل للأمير في فرزهم ونقلهم معه. هو مصير جديد، رغم كون الروح قد اختارت حقا الكنيسة، ورغم كون الذات قد اختُبرت في الحملات العسكرية ببلاد الفلاندرز. رغم هذا وذاك، لم تقبل لجان التفتيش بقاءه هنا بمدريد. يشفع له القرب من ملكية إسبانيا جعلُه مُرَحَّلًا إلى إقليم ميلانو، الإمارة التي ما تزال خاضعة للحكم الإسباني. وكأنه سيعيش قريبا من دائرة النار والاختبار، قريبا من روما، حيث مصدر هذا الفتيل الذي أحرق بلاد إسبانيا وحكم على مستقبلها بمجهول انهيار. كم من مسؤول إداري ومالي، حذر من تساقط قوة البلاد بالقضاء على أهلها ممن كان آباؤهم أو أجدادهم مسلمين أو يهود.

الوداع يا مدريد، المدينة التي احتضنتني وأحبتني وأعجبتني، والتي انتميت إليها شاعرا وأميرا وحبيبا للفن والحياة. الوداع يا مدريد التي تركت فيها أسرتي الأدبية والفنية. لوبي، وسرفانتيس، ماذا ستخطان الآن؟ ما مصير أشعارنا المتبادلة رسائلَ روحية وجمالية؟ ما مصير قصصنا وخيالنا المشترك الذي صهرنا به حديد الرماح

المتقاتلة بين مرافئ البحر الأبيض المتوسط، بحر روما العظيم؟ ما مصير مؤلفاتكم التي تنتظر النور، مثل مولود جديد سينبعث للحياة؟ ربما سيتم اغتيال كل نور الآن.

لك أن تنسج سيرة جديدة يا لوبي. لم أعد صاحب الحظوة الملكية الآن. شح البئر أو نضب ماؤه، أو اغتصبت غلته، وأصبحتُ متهما بالتبذير والاحتيال على الدين من أجل لقمة أو من أجل المال.

سأعيش ما تبقى لي من حياة، اليوم وغدا، داخل دير مختار. الجميل أنهم اعتبروه أفضل حل ومسار. مسار تطهير الروح والاكتفاء بحياة الرهبان ومعيشهم. حراسة عملية مقيدة للحرية. لا سهرات، ولا حفلات، ولا حتى لقاءات أدبية وثقافية أو فنية. (ما أسعدك يا أمير!). هكذا علق القس. أنت الآن ضامن رضا الأب والابن والروح القدس، ضامن الجنة والطهارة.

ما أسعدك يا أمير! هكذا تسخر منه نفسه بمثل هذه العبارة. على الأقل أنت ضامن عدم الفتك بروحك وقتل انتمائك لتوقيع دمك.

(من أنا؟). سبق أن عذب روحه بمثل هذا السؤال الذاتي.

الوداع يا مدريد.

سمع لصرير المزلاج وهو يوقع لإعادة غلق البوابة الشرقية الكبرى. وكأن ذلك آخر توبيخ له: تخلصنا منك بهذا الرحيل. أنت الآن خارج أسوار المدينة. لا عودة لك عندها، ولا شفاعة للإسكوريال.

سيعود العسس للنوم، وحراس الأرواح للاشتغال في ترصد حيوات جديدة. ما تزال النار مشتعلة في الأنفس. لم يهضم ذهن الأمير تنامي هذه الأحقاد. لم ينتم إليها. يوم اختار الدخول في المسيحية، كان الحب زاده والشوق شراب سقايته في رحلته الجديدة. لم يبغض ديانة، راقص الحب والفن وعشق الحياة. ذوق الجمال هو طوق النجاة في الدنيا والآخرة. كانت صبح كلامه الذي وقع به حب جميع الأديان، وشفاعة هذا الحب في المؤاخاة بين الجميع داخل كيانه. وداعا صبح ALBA، وداعا مدريد، لقد حكموا علي بقفص بغض وكراهية ما دمت أسير إكراه.

ما تبقى لي من الحياة، سأخصصه لتحرير كياني مما وقع تدنيسه بها. هم لا يعلمون أن العبادة قصيدة. سأنظم قصائدي الخاصة التي سأغذي بها ابتهالاتي اليومية. ليقف من يشاء في تعميدي أو تطهيري الآن، قس من الفاتيكان، أو إمام من عباد مسلمي الرحمن، أن هليلويا حاخام.

هم لا يدركون أن الروح شبعت يوم اختارت قراراتها، يوم عاشتها كما تشاء.

الروح امرأة، أنثى تمتلك نفسَها. لا تهبها لأي كان، رغم الاعتداءات التي يتعرض لها جسدها اشتهاء واغتصابا.

القصيدة امرأة حرة، لا قيود بين السماء والأرض في تحالفهما قد تكبّل حريتها! وكفى.

كفى !

توفي دون فيليبي دي أفريكا سنة 1621 بقرية فيجيفانو. دفن بالكاتدرائية هناك. لا نجد شاهدا على قبره. ربما هي عملية محو لكل أثر مرتبط به، خصوصا وأن بقاءه على قيد الحياة ستعتبره الكنيسة نوعا من الفشل في قنصها لكل من له امتداد إسلامي أو يهودي.

(كان الأمير قد دخل في أزمة مالية هناك، بحيث انقطعت جل مداخيله المالية. وقبل وفاته قام بإعداد شهادة يصرح فيها بنفويت أملاكه لابنته جوزيفا دي أفريكا* Josefa de africa*. توفي مولاي الشيخ في نوفمبر 1621م، عن عمر يناهز خمس وخمسين سنة).